

الدراسات الأمنية

والقانونية والعلمية والاجتماعية والنفسية

تصدر عن مجلة الأمن

العدد ٩٠ - ٢٠٢٢

مجلة فصلية محكمة من قبل وزارة الثقافة

اللبنانية تحت رقم ٢٥٧٣/م.ا.م/٢٠٢٠

رئيس التحرير المسؤول

العقيد الركن شريل فرام

مدير التحرير

خضر حيدر

المدير الفني

المعاون الأول ابراهيم الحاج شحادة

لجنة الإشراف العلمي

العميد م. ناجي ملاعب

العميد الركن م. نزيه أبي نادر

الدكتور لويس صليبا

الدكتور أحمد حطيط

الدكتور أحمد سامرجي

الدكتور نجاته جدعون

الدكتور ألبير رحمة

العنوان: الأشرافية - شارع بيضون - تكتة الملازم الأول الشهيد الياس الخوري

الموقع على الإنترنت: www.isf.gov.lb

الإدارة: هاتف ٠١/٣٢٨٠٦٤ - فاكس الإدارة: ٠١/٣٣٨٧٢١

التحرير: هاتف: ١٠/٢٠٤٣١٥

البريد الإلكتروني: alamenedtn@isf.gov.lb

alamendirasat@gmail.com

ثمن النسخة: ١٠٠٠٠ ل.ل.

الطباعة: مطبعة العربية

شروط النشر:

ترحب مجلة الدراسات الأمنية بإسهامات الباحثين المهتمين بالدراسات الأمنية على مختلف اتجاهاتها وأبعادها اللبنانية والعربية والدولية. وتحيط المجلة الأخوة الباحثين علماً بشروط النشر فيها:

- أن تعالج القضايا بأسلوب علمي موثق.
- أن يكون التوثيق قائماً على ذكر المصادر والمراجع بأسلوب أكاديمي يتضمن:
أ - الكتب: اسم المؤلف، عنوان الكتاب، مكان وتاريخ النشر، اسم الناشر.
ب - في المجلات: اسم كاتب المقال، عنوان المقال، رقم العدد وتاريخه، رقم الصفحة.
- معايير النشر: الموضوعية، المستوى العلمي، الدقة ودرجة التوثيق.
- يفضل أن يكون النص مدقّقاً لغوياً ومطبوعاً على الكمبيوتر، ومرفقاً بالقرص تجنباً للأخطاء المحتملة، وإن تعذّر فبخط واضح.
- ألا يتجاوز حجم الدراسة ٦٠٠٠ كلمة كحد أقصى، وأن يرفق ذلك بملخص لا يتجاوز ٥٠ كلمة، تنشر معه عند نشره.
- يشترط ألا يكون البحث المرسل للنشر في المجلة قد نُشر أو أرسل للنشر في أية وسيلة نشر أخرى.
- تخضع البحوث الواردة لتحكيم لجنة الإشراف العلمي في المجلة، ولا تعاد البحوث المعتبرة عن نشرها إلى أصحابها، كما يمكن للجنة أن تطلب إجراء بعض التعديلات على البحث قبل الموافقة على نشره.
- يجري إعلام الكاتب بقرار اللجنة الاستشارية خلال شهرين من تاريخ تسليم النص.
- تحتفظ المجلة بحقها في نشر المادة المجازة وفق خطة التحرير.

قوانين الطباعة:

يرجى التقيد بهذه الشروط التقنية المدونة أدناه لتلافياً للأخطاء المتكررة التي نواجهها في كل عدد:

- أن يكون النص مطبوعاً على الكمبيوتر على أحد البرامج التالية
Word ، In design وعدم نسخه على أي برنامج آخر إنترنت كان أو Scanner.
- عدم إرسال جداول أو صور ضمن النص.
- نسخ الموضوع على CD.

محتويات العدد:

الافتتاحية: الصعود من الهاوية.....	٥	العقيد الركن شربل فرام
الهجرة المتزايدة وإشكالية الحفاظ على الانتماء الوطني في لبنان.....	٨	د. مسعود ضاهر
عن العولمة والذكورونا، والنظام العالمي الجديد.....	٢٦	العميد م. ناجي ملاعب
مسؤولية الرئيس عن فعل المرؤوس في القانون الجنائي الدولي.....	٤٦	المقدم الدكتور محمد قمره
الصراع الدولي للسيطرة على بحرقزين.....	٥٦	الدكتور محمد قبيسي
الصحافة ونشأتها وشخصية الصحفي.....	٦٤	الدكتور فؤاد الحركة
الفكاهة والضحك ورؤاهما في التراث العربي واللبناني.....	٧٦	د. لويس صليبا
Dr. Ali JABER	Educational support in the light of educational	
Dr. Mayssa HAJJ SLEIMAN	١٠٤ neurosciences	

ملاحظة:

- لا علاقة لتسلسل الأبحاث في هذه المجلة بأي معيار تقويمي، بل هو يجري في سياق تنسيقها الموضوعي.
- الآراء الواردة في الموضوعات المنشورة لا تعبر بالضرورة عن سياسة المجلة.

الافتتاحية

الصعود من الهاوية..

بقلم: رئيس التحرير
العقيد الركن شربل فرام

تسقطُ الثمار عندما يصيبها المرض، وتسقطُ الأوطان عندما يهجرها الولاء.

بين الثمرة والوطن شبه، وفي الشبه عبرة.

أمراض الثمرة معروفة وعلاجها معروف.

أمراض الوطن كثيرة ويصعب علاج تفاقمها.

أمراض كثيرة وأسباب كثيرة.

أمراض تصيب العقول، وأمراض تصيب النفوس.

عندما ندور في فلك أشخاص، أشباه آلهة، يكون العلاج مستعصياً.

عندما نبتعد عن القيم والمبادئ والأخلاق يكون العلاج مستعصياً.

عندما يكون الولاء لغير الوطن يكون العلاج مستعصياً.
عندما نستسلم أمام الصعوبات ولا نفكر بالصعود من الهاوية

يكون العلاج مستعصياً.
الصعود من الهاوية يتطلّب وعياً حقيقياً للأزمات التي نتخبّط
بها وإدراك أسبابها ومعالجتها بحلول طويلة الأمد.
الصعود يتطلّب وضع مصلحة الوطن فوق كلّ المصالح
والغايات.
الصعود يتطلّب الابتعاد عن النيران المشتعلة والمخطّطات
المحرقة.
الصعود يتطلّب منّا الإيمان بقدراتنا وطاقاتنا.
يكفينا انغماسٌ بالارتهان والتبعية والنكران.
يكفينا انغماسٌ بالهويات الغريبة عنّا، والثقافات الغريبة عنّا.
نقف اليوم على مفترق طرق.
فإمّا أن نعرف العلاج ونصل إلى الخلاص.
وإمّا أن نبقى في عوالم الهاوية...

الهجرة المتزايدة وإشكالية الحفاظ على الانتماء الوطني في لبنان

د. مسعود ضاهر

الحراك السكاني في المقاطعات اللبنانية

إن استقرار الجماعات السكانية ظاهرة ثابتة في تاريخ جبل لبنان منذ عقود طويلة، وتميزت بتمركز بعض الطوائف اللبنانية في مناطق جغرافية محددة. فاستقر قسم كبير من الموارنة في وادي قاديشا، والبترون، وجبيل، ثم كسروان. وتمركز السنة إقليم الخروب، ومناطق متفرقة أخرى. وكان للروم الأرثوذكس حضور كثيف في منطقة الكورة والمتن، واستقر الشيعة في مناطق كسروان والهامل وجبيل والبترون، وتمركز الدروز في الشوف وعاليه، واستقرت غالبية الروم الكاثوليك في زحلة وشرقي صيدا وجزين.

ورغم الحراك السكاني البارز بعد قيام دولة لبنان الكبير، ما زالت بعض الدراسات التاريخية ذات المنحى الطائفي تعتمد النظرة السكونية السابقة لتمركز الطوائف اللبنانية، لكنها تبدو اليوم عاجزة عن تقديم مقولات علمية رصينة حول التبدلات السكانية التي شهدتها المقاطعات اللبنانية في القرن العشرين، وتحليل الأسباب الداخلية والإقليمية والدولية التي شجعت عليها. فالتمسك بالمنهج الطوائفي في دراسة تاريخ لبنان المعاصر على مناطق متصرفية جبل لبنان يدل على تجاهل سكان المدن الساحلية والأقضية الأربعة التي ضمت إلى دولة لبنان الكبير، وأحدثت تبدلات بنيوية في تمركز التجمعات الطائفية في لبنان المعاصر. وغالباً ما تستخدم الدراسات الطائفية والمذهبية شعارات شعبية تدغدغ عواطف بعض اللبنانيين عبر مقولات إيديولوجية تكتفي بقراءة سطحية للتبدلات السكانية في لبنان، ولا تقدم تحليلاً علمياً معمقاً لحركية تاريخ لبنان واحتمالاتها المستقبلية. فتتكرر رؤية مؤرخي الطوائف في كتابة تاريخ لبنان الطائفي من دون النظر إلى حركة التاريخ كما يراها المؤرخون الاجتماعيون. وهي حركة دائمة التطور في كتابة تاريخ الشعب اللبناني على أسس وطنية جامعة، بمعزل عن العصبية الطائفية والمناطقية والعرقية والإيديولوجية. ويرسم المنهج الاجتماعي التطوري حركة التبدلات السكانية داخل المناطق اللبنانية انطلاقاً من ركائزها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والإدارية، وذلك وفق مقولات علمية تساعد على كتابة تاريخ الانتشار اللبناني من الوطن الأم إلى مختلف دول العالم، وبالاستناد إلى وثائق أصلية من مصادر متنوعة، رسمية وخاصة.

فمسار التعددية السكانية والتنوع الثقافي في تاريخ لبنان المعاصر يشكل منطلقاً لنشر ثقافة الديمقراطية التي ساهمت في تمايز الانتشار اللبناني واتساع دائرة إشعاعه الثقافي خارج حدود لبنان الجغرافية.

ومن خلال التعددية السكانية تبلورت اتجاهات وطنية شكلت منابر متقدمة للثقافة الحرة، والعقلانية، والنقدية، والعصرية. وقدمت نموذجاً يُحتذى لكثير من الدراسات السكانية غير الطائفية، وأثرها على مختلف الصعد الاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية، والثقافية، والتربوية، وغيرها.

هناك تلازم واضح بين التحركات السكانية بحثاً عن وسائل أفضل للعيش بحرية في أجواء مستقرة، وبين حركة الانتقال المستمرة من الأرياف المهمشة إلى التحضر والاستقرار في المدن. فالتمدين غاية الحراك الريفي والانتقال إلى سكن المدن تحقيقاً لأهداف متعددة. وبسبب التنقل السكاني في لبنان بعد ولادة دولة لبنان الكبير عام ١٩٢٠، ثم نيل اللبنانيين استقلالهم السياسي وجلاء الجيوش الأجنبية عن أراضيهم، اتسعت دائرة التحركات السكانية بشكل واضح تحت تأثير الضغوط الإقليمية والدولية ما استوجب استخدام مصطلح النزوح لوصف انتقال الأفراد بين الأرياف إلى المدن اللبنانية، ومصطلحي الهجرة ثم الانتشار لوصف الانتقال إلى خارج حدود لبنان. وللحراك السكاني سمات خاصة غالباً ما تشير إليها الدراسات السكانية بمقولة القطب الدافع والقطب الجاذب. وهي فرضية علمية هامة تساعد على تحليل طبيعة الحراك السكاني في إطار العلاقة الجدلية بين القطبين.

تبلورت سمات التحركات السكانية في مرحلتي الانتداب الفرنسي ثم الاستقلال، وبشكل خاص في مرحلة الحرب اللبنانية ما بين ١٩٧٥ - ١٩٩٠ واحتلال إسرائيل لأجزاء واسعة من لبنان لفترة ما بين ١٩٧٨ و١٩٨٢ وما رافقهما من نزوح داخلي متواصل وهجرة كثيفة إلى الخارج.

في هذا المجال، قدم الباحثون دراسات تفصيلية لا حصر لها تناولت التبدلات الكبيرة التي شهدتها المجتمع اللبناني بجميع مناطقه وطوائفه. وهي ظاهرة جديدة من الحراك السكاني غير مسبوقه في تاريخ لبنان المعاصر. وعكست فشل السلطات اللبنانية في إدارة شؤون النازحين والجماعات الوافدة إلى لبنان لأسباب متنوعة تركت أثراً سلبية كبيرة على حياة اللبنانيين. واحتضنت جغرافية لبنان جماعات سكانية متعددة الأعراق والثقافات، وشديدة الارتباط بدول الجوار، وتخضع لمؤثرات إقليمية، واجتماعية، واقتصادية، وسياسية، دفعت عشرات الآلاف من اللبنانيين للهجرة إلى خارج وطنهم والانتشار في مختلف دول العالم، وما زالوا في حراك دائم.

وتناولت أبحاث أكاديمية جديدة التحركات السكانية واتجاهاتها في لبنان وفق مناهج اجتماعية متنوعة نجحت في ربط تاريخ الأرياف اللبنانية والطبقات المهمشة فيها بتاريخ المدن اللبنانية والوافدين إليها على اختلاف انتماءاتهم وطبقاتهم. واعتمدت فرضيات أصيلة مسندة إلى وثائق ودراسات وإحصائيات علمية جديدة، ومقابلات شخصية مدونة. وتوصلت إلى استنتاجات هامة في مجالات السياسة، والاقتصاد، والاجتماع، والصحة، والتعليم، والثقافة، والسكان، وغيرها. وقدمت خارطة جديدة للتوزيع السكاني والآثار التي خلفتها التبدلات السكانية في لبنان، وهي تساعد على إطلاق استراتيجية عقلانية طويلة الأمد لمنع تحول هذه التبدلات الطوعية منها والقسرية، إلى واقع دائم يهدد الاستقرار، والأمن، والتنمية المستدامة. وهي تشكل عنصر دفع دائم تغذي هجرة قسرية نحو الخارج. وذلك يتطلب تقديم لوحة مكثفة تبرز حركية النزوح من الأرياف إلى المدن والهجرة منها إلى الخارج.

حركة النزوح والهجرة في تاريخ لبنان المعاصر

تزامنت التبدلات السكانية وامتداداتها مع أحداث سياسية واجتماعية غير معزولة عن البيئة الاقتصادية والاجتماعية التي أنتجتها. وتحليل أسبابها، الطوعية منها أو القسرية، موثق بكثافة عبر وثائق ومصادر أصلية، وإحصائيات دقيقة، و منهج تاريخي اجتماعي ديناميكي تطوري يبرز بصورة واضحة مسار حركية النزوح من خلال تبدلات الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية في لبنان. وهي تبرز التغيرات التي شهدتها البنى الاجتماعية فيه، والقوانين المحلية الضابطة لحركية الانتقال من المجتمع التقليدي ومؤسساته الموروثة كالعائلية، والطائفية، والعشائرية والمناطقية إلى رحاب المجتمع المدني والدولة العصرية عبر مؤسساتها الحديثة كالأحزاب السياسية، والتيارات الوطنية، والعلمانية، والديموقراطية، والليبرالية...

منذ القرن التاسع عشر هاجر اللبنانيون بكثافة إلى كثير من دول العالم، وأقاموا فيها جاليات كبيرة. وفي حين يقدر عدد اللبنانيين المقيمين في وطنهم اليوم بحوالي أربعة ملايين نسمة يتداول الباحثون أعداد المهاجرين اللبنانيين والمتحدرين من أصل لبناني في بلاد الانتشار بنسبة تفوق مرتين عدد سكان لبنان. وتشير بعض الدراسات العلمية اليوم إلى وجود أكثر من مليوني مقيم على أرض لبنان من غير اللبنانيين.

لا يتسع المجال هنا لتقديم لوحة تفصيلية مسندة إلى دراسات علمية عن الهجرات الجماعية التي غادرت لبنان إلى دول الاغتراب وشكل اللبنانيون فيها جاليات قوية، فوصل بعضهم إلى مراكز عليا في الدول المضيفة، ومنهم من جمع ثروات طائلة تمت الاستفادة منها في لبنان. وتعززت العلاقات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية وحتى السياسية باستمرار بين المغترب اللبناني والوطن الأم. وتظهر تلك الدراسات تطور حركة النزوح من الأرياف إلى المدن اللبنانية، وخصوصاً بيروت والهجرة من لبنان إلى الانتشار العالمي.

تشير بعض الدراسات الرصينة إلى أن حركات النزوح من الأرياف إلى المدن في بلاد الشام، والهجرة منها إلى الخارج تعود، بالدرجة الأولى، إلى عوامل اقتصادية إلى جانب سياسة القمع، والمصادرة، والسخرة، التي مارسها السلطنة العثمانية ضد السكان المحليين. كما أن النزاعات الدموية المستمرة في مجتمعات طائفية، وقبلية، وعشائرية، شكلت عنصر دفع للسكان المحليين للنزوح إلى المدن اللبنانية والهجرة منها هرباً من عمليات الثأر، أو طلباً للعمل، أو العلم، أو الاستقرار النفسي.

اتجهت جماعات الريفيين إلى المدن، وخصوصاً بيروت التي بدأت تتوسع بشكل سريع لأسباب داخلية وإقليمية ودولية، وذلك على حساب باقي المدن اللبنانية. وفي دراسة بعنوان: «طرابلس في العهد العثماني: من مركز ولاية إلى مدينة ملحقة»، حلت فيها كيف أن مدينة طرابلس العريقة والتي كانت عاصمة لولاية كبيرة خلال عهود تاريخية متعاقبة كانت فيها بيروت لا تزال مدينة صغيرة،

بدأت تفقد ديناميتها السكانية والسياسية والثقافية والاقتصادية منذ أواسط القرن التاسع عشر مقارنة مع تطور بيروت التي تحولت إلى قطب ديموغرافي جاذب. ثم أتبعها بدراسة أخرى بعنوان: «الحركة السكانية في المشرق العربي في أواخر العهد العثماني: نموذج الهجرة إلى بيروت»، ألقى أضواء جديدة على أثر النزوح الداخلي في تطور المدينة بيروت وتحولها إلى المركز الأساسي لهجرة سكان بلاد الشام نحو العالم.

فتزايد عدد سكانها من قرابة ستة آلاف نسمة في مطلع القرن التاسع عشر إلى قرابة العشرين ألفاً في مطلع القرن العشرين. ويقدر عدد سكانها اليوم بحوالي المليون نسمة. شكلت بيروت مركز استقطاب لكثير من الوافدين إليها من مناطق بلاد الشام، وأعداد كبيرة من جبل لبنان وباقي المحافظات اللبنانية، فاستقر قسم منهم للسكن والعمل في ضواحيها، وأكمل قسم آخر طريق الهجرة إلى الخارج، في حين لم تشكل باقي المدن، ومنها طرابلس وصيدا، مركز جذب إلا لأعداد قليلة من اللبنانيين.

كان اختيار النزوح إلى بيروت والهجرة عبرها لأسباب موضوعية. وبالإضافة إلى الوثائق المحلية دلت ووثائق الأرشيف الفرنسي، والإنكليزي، والأميركي التي اطلعت عليها، على أن إبراهيم باشا كان أول من اهتم بتطوير المدينة بعد أن اتخذها مركزاً لإدارة بلاد الشام. وشجع سكانها على الاستفادة من الحركة الإصلاحية التي قام بها والده محمد علي في مصر والتي تميزت بقيام حركة تحديث شمولية هي الأولى في المشرق العربي، وسبقت حركة التحديث في مركز السلطنة في الآستانة بأكثر من عقد من الزمن.

بنيت إصلاحات محمد علي في بلاد الشام على مقولات نظرية مقتبسة من الفكر الليبرالي الأوروبي، ومنها مقولات عقلانية وعلمانية تساوي بين المواطنين في الحقوق والواجبات من دون الالتفات إلى انتمائهم المذهبي أو العرقي. وشجعت اقتباس العلوم العصرية الغربية. فانخرط سكان بيروت والوافدون إليها في مشروع محمد علي التحديثي أكثر من باقي مدن بلاد الشام التي ظلت وفيية للسياسة العثمانية ولتراثها الإسلامي التقليدي. فاستمر حكام تلك المدن بالدعوة للسلطان العثماني واعتبروا محمد علي والياً متمرداً على السلطان وسيلقى جزاء تمرده على غرار ما حل بالأمير فخر الدين المعني الكبير. وحين هزم عسكرياً في بلاد الشام تم توافق الدول الكبرى على تراجعها إلى مصر عام ١٨٤٠ وحكمها أبنائها وأحفاده حكماً وراثياً من بعده، وعاد الحكم العثماني المباشر إلى بلاد الشام.

تبرز دراستي عن «هجرة اللبنانيين إلى مصر» أن عدداً كبيراً منهم عملوا في التجارة، والعقارات، والصناعة، والصحافة، والأدب، والفنون، والمهن الحرة وغيرها. وأقاموا صلات وثيقة بأبناء الجاليات الأوروبية فيها، وكانوا من أكثر المستفيدين من حركة التغريب التي فاخر بها الخديوي إسماعيل الذي رفع شعار: «لم تعد مصر جزءاً من أفريقيا بل باتت الآن قطعة

من أوروبا». فاستقطب الشعار عشرات آلاف المهاجرين، من العرب والأوروبيين، وحظي اللبنانيون بحصة كبيرة في مجالات متنوعة، وبنسبة تفوق كثيراً حجمهم العددي بالقياس إلى الجاليات الأخرى، وقدرت حصة الشوام بحوالي ١١٪ من الدخل القومي في مصر.

بعد خروج القوات المصرية خضعت بيروت ومقاطعات جبل لبنان مجدداً للسلطنة العثمانية التي رفضت بقاء الإمارة الشهابية، وأعلنت نهاية مرحلة تاريخية كان زعماء اللبنانيين فيها يمارسون السلطة في ظل رقابة صارمة من السلطنة العثمانية وولاتها. لكن بعض الأعيان اللبنانيين رفضوا الخضوع للحكم العثماني المباشر، وطالبوا ببقاء الإمارة اللبنانية، وطلبوا دعم دول أوروبية كانت تستغل صراع الولاة، وزعماء الأسر والطوائف، وزعماء البدو في بلاد الشام لتفكيك السلطنة العثمانية واقتسام ولاياتها. فعمت الفوضى والفتن الطائفية، والانتفاضات الفلاحية بعض مناطق بلاد الشام حتى قيام متصرفية جبل لبنان التي نعم سكانها بالاستقرارا والبجوحة إلى حين أفتت السلطنة العثمانية إمتيازات المتصرفية عند دخولها في الحرب العالمية الأولى.

بقيت بيروت وفيه لإصلاحات محمد علي، فلم تشهد اضطرابات دموية وطائفية. وبعد أن أثبتت حكماها وقادة الرأي فيها حكمة عالية في إدارة شؤونها تبلور مشروع متكامل توافق عليه الفرنسيون والإنكليز والعثمانيون لتطوير المدينة وتحديث كل مظاهر السكن والحياة الاقتصادية والسياسية والثقافية والتربوية والفنية فيها. فتطور مرفأ بيروت بإدارة شركة لبنانية خاصة برساميل أجنبية كبيرة وتحول بسرعة إلى أكبر مرافئ الحوض الشرقي للبحر المتوسط. أصبحت هجرة اللبنانيين الناجحة جدا إلى مصر نموذجا يحتذى في تاريخ لبنان المعاصر. ونقلت الإرسالية الإنجيلية الأميركية مدرستها من عبيه إلى بيروت وحولتها إلى كلية- جامعة. ثم فتح الآباء اليسوعيون فرعا لجامعة ليون الفرنسية في بيروت تحول لاحقا إلى جامعة القديس يوسف. وانتشرت المدارس، والمطابع، والحركة الثقافية والفنية على نطاق واسع. وتهافت إليها الشعراء، والأجانب، والرحالة، والتجار. وفتحت وكالات السفر الأجنبية مراكز فيها لنقل آلاف المهاجرين من بلاد الشام إلى الخارج. فنزح إليها عشرات الآلاف من سكان المناطق المجاورة للسكن الدائم والعمل، أو لسلوك طريق الهجرة عبرها إلى بلدان الاغتراب.

لم يعترض العثمانيون على نهضة بيروت بل حاولوا الاستفادة منها عبر تحويلها إلى مركز لولاية واسعة منذ العام ١٨٨٧. وقد ضمت مناطق من سوريا وفلسطين. ونشطت فيها حركة العمران، وانتشرت فيها المراكز المالية والتجارية، واتسعت دائرة الخدمات الصحية، والترامواي، والمياه، والإنارة. واتخذت الدول الأجنبية منها مركزا لقنصلها، كما اتخذتها الشركات الأجنبية مركزا لوكالاتها التجارية عبر وسطاء من التجار اللبنانيين.

وتم ربط بيروت بدمشق عبر طريق للنقل البري المنظم بالسيارات، ونقل البضائع والركاب بالقطار. وحين أعلن الفرنسيون مدينة بيروت عاصمة لدولة لبنان الكبير جعلوها مركزا لإدارة

جميع الدويلات السورية الخاضعة للانتداب الفرنسي، ومركزاً لتجميع قواهم العسكرية، ومراكزهم الإدارية، والسياسية، والمالية. فتحوّلت إلى مركز إستقطاب كبير، ليس لأبناء المدن والأرياف اللبنانية فحسب بل لأبناء جميع مناطق بلاد الشام. وقد وصف أحد الباحثين الفرنسيين بيروت في عهد الانتداب بأنها: « المدينة التي تحجب بلاد الشام»، والمقصود بذلك مناطق الانتداب الفرنسي.

إن قراءة متأنية لسير المهاجرين الأوائل من مختلف المناطق اللبنانية تبرز تقارباً واضحاً بين الأسباب العميقة التي دفعت النازحين إلى ترك قراهم، والمهاجرين إلى ترك وطنهم وركوب المخاطر إلى أماكن مجهولة من العالم. لكن سير الآباء في الوطن والأحفاد في المهجر تختلف جذرياً من جيل إلى جيل. وقد حلت نزوح اللبنانيين من قراهم وهجرتهم إلى الخارج في عدة مقالات منشورة أبرزها دراسة مطولة بعنوان: «الهجرة اللبنانية إلى مصر، هجرة الشوام»، من خلال ذاكرة الأبناء والأحفاد. وكيف فقد بعضهم شعور الانتماء إلى لبنان فضلوا مغادرة مصر إلى الولايات المتحدة الأميركية بعد صدور قرارات التأميم في المرحلة الناصرية.

ومع تطور الدراسات العلمية الأمبريقية حول هجرة اللبنانيين إلى مختلف دول العالم، ومن مختلف المناطق والطوائف، باتت الحاجة ملحة إلى إعادة نظر جذرية في المفاهيم المستخدمة في دراسة النزوح من الأرياف إلى بيروت ومنها الهجرة إلى الخارج. فتلك المفاهيم غير قابلة للتعميم في حالتي النزوح والهجرة. ولا بد من التمييز بين المهاجرين الأوائل ثم الأبناء والأحفاد، وبين الرجال والنساء من مختلف الأعمار، وفي جميع الحقب التاريخية.

مع الإشارة إلى الذين أصابوا غنى في المهجر أو بقوا فقراء فيه. وتوصيف أوضاعهم في حالات الاستقرار الدائم أو المؤقت في بلدان الاغتراب، وفي حالات الهجرة طلباً للمال والغنى السريع، أو الهجرة لأسباب سياسية أو ثقافية أو إبداعية وغيرها. وتوصيفها يتطلب الإجابة على التساؤلات المنهجية المتجددة، ونشر المزيد من الدراسات العلمية للتمييز بين ظاهرتي النزوح والهجرة في لبنان، وإظهار سمات التشابه أو الاختلاف في أسبابها بين منطقة أو قرية أو جماعة أو طائفة وأخرى.

في القرن العشرين تحوّلت بعض الدول أو المناطق الغنية في مختلف القارات، إلى عوامل جذب لأعداد كبيرة من اللبنانيين. وهي عوامل كثيرة ومتنوعة وفي طبيعتها وفرة الخيرات المادية، وفرص العمل، وجاذب الإثراء السريع. وعندما استقرت أعداد المهاجرين في المجتمعات الجديدة استدعوا قسماً من أقربائهم وأبناء مناطقهم وطوائفهم وبدأت الجاليات اللبنانية تكبر بسرعة وتحتل مراكز متقدمة في الاقتصاد والمجتمع والمهن الحرة، ومنهم من عمل في الإدارة والسياسة. تزايدت هجرة اللبنانيين إلى الخارج في القرن الحادي والعشرين لتطال جميع القارات بأعداد متفاوتة بين قارة وأخرى وبلد وآخر. ونشرت مؤخراً وثائق كثيرة وإحصائيات دقيقة ودراسات

شمولية قدمت مادة غنية حول الهجرة اللبنانية إلى عدد من بلدان الاغتراب. وتوصل الباحثون في مشكلاتها إلى مقولات علمية جديدة. مع ذلك، لا بد من التدقيق في استخدام المصطلحات، والإجابة عن الأسئلة المتعلقة بتاريخ الهجرة اللبنانية، وانتشار المهاجرين وأعدادهم، والنتائج الإيجابية والسلبية لها في مختلف الحقب التاريخية. وأبرز المقولات العلمية في هذا المجال: عوامل الطرد القسري للمهاجر، والظروف الاقتصادية الصعبة، والتعسف السياسي، والأنظمة التسلطية، والضرائب الفادحة، والنزاعات الطائفية، والمشاريع الاستعمارية الأجنبية، والمشروع الاستيطاني الصهيوني وغيرها. تقابلها عوامل جذب شجعت المهاجرين على ترك بلادهم والسفر إلى الخارج، ودعوة بعض أقربائهم للالتحاق بهم في بلاد الاغتراب، والتشبه بمن هاجروا واغتنوا، وولادة الجيل الثاني وما يليه من أبناء المهاجرين في الخارج وغيرها. ما يفتح آفاقاً جديدة لفهم أثر الهجرة في مختلف جوانب الحياة الاجتماعية، ومنها مشكلة النزوح، والتشكل المدني، والإبداع الثقافي، ودورها في إضعاف مؤسسات المجتمع المدني وغيرها.

في المرحلة الراهنة باتت الهجرة ظاهرة بشرية متبدلة باستمرار، في أسبابها، وتجلياتها والنتائج التي ترتبت عليها في جميع المجالات. بيد أن سيرورة الهجرة في البدايات تختلف عنها في المرحلة الراهنة من حيث الأهداف والنتائج. كما أن الأسباب التي رافقت الهجرة اللبنانية في بداياتها الأولى لم تعد الآن في سلم ترتيب الأسباب الراهنة لها، إذ كانت في البدايات هجرة فردية، وتقاس بمئات المهاجرين سنوياً، وأصبحت الآن هجرة جماعية تقاس بالآلاف شهرياً. كانت الهجرة أولاً لدوافع قسرية بالدرجة الأولى، فأصبحت اليوم هجرة طوعية بحثاً عن عمل أفضل، وموارد مالية مضمونة، أو درءاً للبطالة، وبحثاً عن الحرية والديموقراطية، وسعياً وراء الاستقرار الوظيفي والعائلي في الحياة الأكاديمية والمهنية وغيرها .

أسس الانتداب الفرنسي لمرحلة تاريخية جديدة تميزت بتحويل مدينة بيروت إلى عاصمة لدولة لبنان الكبير. ومارست إدارته سياسة تهميش باقي المدن والمناطق اللبنانية بأشكال متنوعة ما زالت مستمرة حتى الآن، فشهد لبنان حركات نزوح داخلي وهجرات متلاحقة نحو الخارج على شكل موجات متعاقبة منذ أكثر من قرن من الزمن. وغادر اللبنانيون وطنهم بأعداد متزايدة اتجهت نحو مناطق عدة أبرزها: مصر، وأوروبا، والولايات المتحدة الأميركية، وأميركا الجنوبية، وأفريقيا، ودول الخليج العربي، وكندا، وأستراليا. وقد مارست غالبية المهاجرين الأوائل العمل التجاري بأشكاله الدنيا عبر « الكشة» أو الحقيبة، والمتطورة عبر مؤسسات تجارية وصناعية ذات شهرة واسعة في دول الإغتراب. وبالإضافة إلى العمل في الزراعة، والإدارة، والحرف، لعبت نخبة متميزة من اللبنانيين دوراً ريادياً في نشر الصحافة، وممارسة مختلف أنواع الثقافة والآداب والفنون والعمل النقابي والسياسي.

شكلت الهجرة اللبنانية ظاهرة هامة جداً أخذت تتبلور مع الجيل الثاني والثالث من أبناء

المهاجرين الذين نالوا قسطاً كبيراً من الثقافة، داخل مدارس وجامعات لبنان أو في مدارس البلدان المضيفة. وأصبحت هجرة المثقفين والمبدعين اللبنانيين اليوم مصدر قلق شديد تهدد ركائز المجتمع اللبناني، وتحرم المؤسسات اللبنانية من قوى شابة ذات قدرة فائقة على التغيير الديموقراطي للمؤسسات القائمة في لبنان. وتبرز بعض الدراسات الحديثة الجانب السلبي لهجرة الكفاءات المهنية والطاقات الثقافية والإبداعية من لبنان إلى الخارج.

كان مستوى التعليم في الجامعات والمعاهد اللبنانية متميزاً عن باقي الدول العربية. وكانت هنالك سهولة في التواصل بين لبنان وغالبية دول العالم، وتحديداً في مجال التواصل اللغوي والثقافي بين لبنانيين مزودين بثقافة عصرية، ويتقنون أكثر من لغة حية، وبين الشعوب الأخرى. نتيجة لذلك ظهرت فئة جديدة من المهاجرين اللبنانيين ضمت شريحتين هما: أصحاب الشهادات العليا، وأصحاب التخصص المهني. وبسبب كثافة الهجرة السنوية من أفراد هاتين الشريحتين أصيب لبنان بنزف بشري حاد لأن أفراد هاتين الشريحتين يلعبون دوراً أساسياً في تدريب الطاقات الشابة وتقديم خدمات ضرورية يحتاج إليها المجتمع اللبناني في مختلف مراحلها.

وتحت تأثير التبدلات الديموغرافية نزحت أعداد كبيرة من سكان الأرياف البعيدة إلى بيروت. فأقاموا لهم أحياء صغيرة، أو هوامش عائلية قروية لأبناء كل منطقة باستثناء الميسورين والأغنياء الذين اندمجوا في مختلف أحياء بيروت الغنية. ولأسباب قسرية وطوعية، ووفدت إليها، أعداد كبيرة من الأرمن، والأكراد، والسريريان، والكلدان، والأشوريين، بالإضافة إلى عدد من أبناء الجاليات الأوروبية، ومواطنين من مختلف رعايا الدول العربية. بالمقابل، حافظت المدن اللبنانية الأخرى على وتيرة نمو متدنية لسكانها المحليين من دون أن تشهد نزوحاً جماعياً لأسباب موضوعية ناجمة عن غياب مؤسسات الدولة فيها، وغياب المشاريع الإنمائية، والاقتصادية، والوكالات التجارية، والاستثمارات المالية، والحركة الثقافية والفنية والإعلامية.

لذلك تميزت بيروت عن باقي المدن اللبنانية الأخرى بديمومة استقطاب الحراك السكاني واستمرار تدفق الوافدين أو النازحين إليها من مختلف مناطق بلاد الشام، والمهاجرين عبرها إلى مختلف دول العالم. وهي ظاهرة لم تشهد مثيلاً لها باقي مدن المنطقة، فاستمر النزوح الريفي إلى بيروت من المناطق الفقيرة في عكار، وبعبك، والهامل وإقليم الخروب. وفي الأزمات الاجتماعية الحادة الناجمة عن الاعتداءات الإسرائيلية اليومية على جنوب لبنان نزحت إليها أعداد كبيرة من الجنوبيين، وسكن معظمهم في ضاحيتها الجنوبية التي بات عدد سكانها اليوم يقارب عدد سكان مدينة طرابلس، وهي ثاني أكبر مدن لبنان. كما أن أعداداً كبيرة منهم هاجرت إلى الخارج، وبشكل خاص إلى القارة الأفريقية وإلى دول النفط.

هجرة الكفاءات اللبنانية وأثرها على المجتمع اللبناني المعاصر

أدت التحركات السكانية في مختلف تجلياتها وبخاصة التنمية المستدامة في بيروت وجوارها إلى قيام تمركز سكاني كثيف على حساب التنمية الهزيلة في الأرياف اللبنانية. وبسبب غياب المشاريع التنموية في الأرياف برز خلل كبير في توزيع الكثافة السكانية، وتم إغفال الطاقات البشرية والشبابية والموارد الطبيعية في المناطق الحدودية التي شهدت تنمية محدودة للغاية بسبب النزوح الكثيف إلى المدن والهجرة إلى الخارج. وكانت لها أبعاد اجتماعية خطيرة بسبب تحركات عشوائية للأفراد والجماعات داخل لبنان، وانعكاساتها الطائفية والمناطقية، تمركزها الجغرافي، وتداعياتها المجتمعية والوطنية، وغياب القوانين والمراسيم الصادرة عن نظام سياسي طائفي يفتقر إلى الحد الأدنى من التوجيه الإقتصادي تحت ضغط زعماء الطوائف، وذهنية الميليشيات التي هيمنت على هيكلية الدولة منذ اندلاع الحرب عام ١٩٧٥، فطرحت سلباتها الكثير من القضايا المنهجية أبرزها:

أ- لماذا استقطبت العاصمة قرابة نصف سكان لبنان على حساب إفراغ الأرياف والمناطق الحدودية من طاقاتها الشبابية والعمالية المنتجة؟

ب- ولماذا تجاهلت التجمعات الاقتصادية ذات المدخرات المالية المرتفعة والمكدّسة في بنوك بيروت تنمية المناطق الريفية اللبنانية وجعلتها عاجزة عن ضمان الحد الأدنى من الحياة الكريمة لسكان الأرياف إلى أن باتوا عاجزين عن تأمين لقمة العيش بكرامة وضمن السكن، والتعليم، والصحة لأبنائهم؟

ج- ولماذا أغفلت الحكومات المتعاقبة منذ الاستقلال حتى اليوم تنمية الأرياف البعيدة رغم كفاءة اللبنانيين ومهارتهم الزراعية والمهنية في تلك المناطق؟ ولماذا سمحت للشركات الاحتكارية بتشويه الأرياف عبر الكسارات والمراجل التي تعمل من دون حسيب أو رقيب، وتركت المصانع تلوث مياه الينابيع والأنهار في لبنان، وأطلقت العنان لشركات جمع وطمر النفايات لتسمم حياة اللبنانيين في جميع المدن والأرياف فجنت مليارات الدولارات على حساب صحتهم ولقمة عيشهم، وتهجير أبنائهم؟

د- ولماذا تم التركيز على قطاع البنوك والخدمات على حساب قطاعي الزراعة والصناعة؟ رغم ويلات الحرب اللبنانية وكثرة ضحاياها البشرية والمادية بقي المهاجرون اللبنانيون على صلة وثيقة بوطنهم لبنان. لكن أخطر النتائج السلبية كانت ظاهرة هجرة المثقفين، والمبدعين، وأصحاب المهن الحرة، والعمال المهرة، والتي أدى اتساعها إلى فتور متزايد في الانتماء الوطني لدى المهاجرين اللبنانيين الذين اندمجوا في مجتمعاتهم الجديدة وقرروا السكن الدائم فيها. وبات هؤلاء يشعرون بأن دولتهم الفاسدة ألحقت قسراً بالنظام العالمي الجديد وثقافته الكونية التي تهمش الثقافات واللغات والقوميات في البلدان النامية. وبات اختيار الغالبية الساحقة من

المتقنين والمبدعين اللبنانيين الهجرة إلى أوروبا وأميركا وغيرها من الدول الديمقراطية المتطورة بسبب غياب مناخ الحرية، وانعدام الممارسة الديمقراطية، وندرة فرص العمل وصعوبة الاستقرار النفسي والعائلي في لبنان. فوجد اللبناني نفسه مندفعاً للبحث عن الحرية ليحقق من خلالها إبداعه الثقافي بعد أن شكل النظام السياسي الطائفي القائم على ديمقراطية طائفية توافقية عامل دفع لهجرة أعداد كبيرة من اللبنانيين. وتعرض بعض المبدعين الأحرار للقمع السلطوي بأشكال متنوعة. فمنهم من هاجر، ومنهم من أصر على البقاء في وطنه فوجد نفسه عاجزاً عن ممارسة دوره الثقافي في التغيير والإصلاح. فتزايدت أعداد أصحاب المهن الحرة، والمتقنين المهاجرين من لبنان بحثاً عن الاستقرار المؤسس للإبداع والشهرة، والجوائز العالمية، وفتحت أمامهم أبواب الجامعات، والمراكز البحثية، والإعلام، ودور النشر.

ليس من شك في أن هجرة المبدعين من أوطانهم ظاهرة خطيرة وذات نتائج سلبية، لأن بقاء المثقف في بلده ضرورة وطنية كرمز للصمود والمواجهة، وكمعلم للأجيال المتلاحقة من اللبنانيين. وحضور المثقف - الرمز مهم جداً بين أهله وفي وطنه. وهذا ما أشار إليه عمر فاخوري بقوله: « على الأديب أن يقدم حياته نموذجاً حياً على أدبه ». وهناك مواقف مضيئة لعدد كبير من المثقفين اللبنانيين الذين تصدوا بجرأة لسياسة قمع الحريات في بلادهم، ومنهم من تعرض للقتل، أو النفي، أو فقدان الوظيفة. وهناك نماذج كثيرة للمثقف - الرمز الذي دفع ثمناً غالياً في تصديه لقوى القمع والإرهاب في وطنه. ومنهم من اضطر للرحيل من دون أن يبتعد بالفكر والانتماء. وهناك عدد كبير من المثقفين اللبنانيين الذين سكنوا في الخارج وبقي إنتاجهم الثقافي فاعلاً في تثقيف أجيال من الجامعيين وما زالت أبحاثهم تصنف بين قلة نادرة من الدراسات العلمية العربية التي تقف على قدم المساواة مع أرقى الأبحاث العالمية. وبفضل إبداع اللبنانيين داخل وطنهم وفي بلاد الاغتراب ما زال المجتمع اللبناني منفتحاً على جميع الاتجاهات الثقافية والسياسية والفنية العالمية. ويحتضن على الدوام مجموعات إبداعية متنوعة من جنسيات عدة تبادل اللبنانيين الحب العميق وتساهم في تعزيز حضور لبنان المميز على المستويين الإقليمي والدولي.

مع ذلك، لا بد من الاعتراف بوجود قوى سياسية لبنانية أفشلت وما زالت تفشل جميع محاولات الإصلاح في لبنان. فأبقت على الصيغة الطائفية للنظام اللبناني ومؤسساته مع تبني الخيار الأكثر سوءاً عبر الانحدار من الطائفية إلى المذهبية. وساهمت في تمركز مؤسسات الدولة في بيروت التي تحولت إلى مدينة كوسموبوليتية على حساب مدن الأطراف. وتغيرت تركيبتها السكانية بحيث أصبحت في صلب أزمة الحراك السكاني في لبنان بأبعاده السياسية والاقتصادية، والاجتماعية، والثقافية، والأخلاقية. وهمشت مناطق الأطراف البعيدة على اختلاف انتماءاتها الطائفية، والسياسية.

لقد نجح اتساق الطائف فقط في الإعلان عن نهاية الحرب الأهلية من دون أن يقدم حلاً

عقلانية لعدم تجددتها، أو لإعادة الإعمار والتنمية المستدامة على أسس وطنية جامعة. وزادت حدة الأزمة والاستقرار الداخلي بسبب الخلاف الدائم بين زعماء الطوائف، وذهنية الميليشيات التي أدمجت في مؤسسات الدولة، وانتشار سياسة الفساد والإفساد على نطاق واسع من دون أن يستطيع القضاء اللبناني مجابهته بسبب هيمنة القوى التسلطية على قراراته. نتيجة لذلك بات التوزيع السكاني الجديد مصدر قلق شديد لجميع اللبنانيين بسبب فشل الدولة في إزالة الأسباب الحقيقية للنزوح، والتهجير القسري، وكثرة الوافدين إلى لبنان للعمل على أرضيه من دون رقيب، ما أدى إلى فشل عودة نسبة كبيرة من المهجرين اللبنانيين رغم جهود «وزارة المهجرين» لإعادتهم إلى قراهم، وكثرة الوعود التي أطلقتها الدولة لتأمين البنى التحتية الضرورية لسكنهم فزادت حدة الأزمة الاجتماعية بسبب غياب برامج التنمية الشاملة والمستدامة من جهة، ووجود أعداد كبيرة من اللاجئين الفلسطينيين منذ الاحتلال الإسرائيلي لفلسطين. وشهد لبنان مؤخراً أعداداً كبيرة من النازحين السوريين بعد انفجار الحرب المستمرة في سوريا منذ العام ٢٠١١، فبات عدد النازحين واللاجئين غير اللبنانيين يقارب نصف سكان لبنان، بالإضافة إلى أعداد كبيرة من الوافدين للعمل فيه من دول عربية وأسيوية. وهذا الأمر دفع أعداداً كبيرة من اللبنانيين إلى الهجرة والانتشار في العالم.

ونظراً للمآسي الكبيرة التي شهدتها بعض المناطق اللبنانية منذ الحرب، تشكلت تجمعات سكانية كبيرة من لون طائفي ومذهبي واحد، لكنها ضمت أقليات من طوائف أخرى تسعى لحماية العيش المشترك في ظل تجمعات محلية للطوائف الكبيرة، فأضحى التنوع السكاني أسير تشنجات طائفية ومذهبية متزايدة في غالبية المناطق، ما ترك أثراً سلبية ونفسية على البنية الاجتماعية في دولة هشّة تأتمر بتوجيهات زعماء الطوائف والأحزاب والتيارات السياسية الطائفية التي تحركها الذهنية الميليشياوية والمشاريع الإقليمية والدولية.

وبرز تناقض حاد بين التوزيع السكاني المدوّن في دوائر النفوس في كل قضاء ومدينة وقرية في دولة لبنان الكبير، وبين تجمعات سكانية جديدة نتجت من التجنيس الجماعي العشوائي، أو التجنيس الغالي الثمن، أو نقل نفوس أعداد كبيرة من اللبنانيين من مناطق إلى أخرى لأسباب طائفية أو ذات صلة بتوجيهات انتخابية وسياسية.

رغم هذه اللوحة السوداوية من الفساد السياسي والإداري المستشري في لبنان سارع المغتربون اللبنانيون إلى توظيف نسبة مرتفعة من أموالهم في قراهم ومناطقهم، وفي مشاريع عقارية وسياحية واقتصادية منتجة في مناطق تحتضن تجمعات شعبية كبيرة. فأسس المال الوافد من الاغتراب لواقع جديد على المستوى الاقتصادي والاجتماعي والنفسي والأمني. وحمل معه تفاؤلاً مرحلياً بأن الأزمت الاجتماعية الحادة في لبنان وما رافقها من كثرة النزاعات الدموية قابلة للحل بدعم من المغتربين ومن مؤسسات ومنظمات دولية ما زالت تؤمن بضرورة دعم النموذج اللبناني الفريد من

نوعه في الشرق الأوسط. فقد ضمن في زمن الاستقرار الاجتماعي والازدهار الاقتصادي، العيش المشترك، والتعايش الإيجابي بين أكثر من ثماني عشرة طائفة دينية، وجنسيات عرقية عديدة. لكن استقرار لبنان وازدهاره وضمّان قدرته على مواجهة أزماته السياسية والاقتصادية والاجتماعية والصحية في زمن انتشار وباء «كورونا» القاتل رهن بتغيير النظام السياسي الطائفي في لبنان أو تطويره من خلال إقامة دولة ديموقراطية عادلة تساوي بين جميع اللبنانيين في الحقوق والواجبات.

بعض الملاحظات الختامية

شكل هاجس البحث عن الحرية، والعمل، والاستقرار العائلي قطباً جاذباً لعدد كبير من اللبنانيين الذين توجهوا نحو دول تمارس الديموقراطية السياسية وتنتشر العلوم العصرية وتساعد على الإبداع العلمي والثقافي، وأخرى تمتلك موارد اقتصادية ضخمة يمكن الاستفادة منها لجمع ثروات كبيرة تحدث تغييراً سريعاً في أوضاع المهاجر اللبناني وأسرتة وأنسبائه في وطنه. فجذبت حركة الرساميل والعمل والإنتاج في تلك الدول أعداداً كبيرة من المهاجرين اللبنانيين الذين يتمتعون بالكفاءة العلمية والمهنية والرغبة في القيام بأعمال تساعدهم على جمع ثروات كبيرة في بلاد الاغتراب لتوظيف نسبة هامة منها في لبنان.

أرست الهجرة اللبنانية ركائز صلبة لانتشار المثقفين، والفنانين، وأصحاب المهن الحرة، ورجال المال والأعمال من اللبنانيين في الخارج طوال القرن العشرين. ورغم فوائدها المالية الكبيرة باتت الهجرة اللبنانية اليوم مصدر قلق شديد على استقرار المجتمع اللبناني في القرن الحادي والعشرين. ففي مرحلة الفساد السياسي وانتشار وباء «كورونا» تحولت إيجابيات الهجرة إلى أزمة اجتماعية خطيرة تهدد مصير لبنان واللبنانيين.

ومع تزايد نسبة المهاجرين الذين قرروا الاستقرار النهائي في بلاد الاغتراب تعرض النظام السياسي الطائفي القائم على المحاصصة بين زعماء الطوائف لانتقادات حادة، وخصوصاً في أوساط الشباب اللبناني الذين حرموا من العلم والعمل. فطالبوا بإسقاطه أو تغييره بالطرق الديموقراطية السلمية. كانت الدوافع والأسباب الحقيقية التي جعلت نسبة كبيرة من الشباب اللبناني تتخذ قرارا بمغادرة الوطن بعد أشهر قليلة على التخرج من الجامعة كثيرة ومتنوعة. فمنهم من أدرك سلفاً أن الفرص المتاحة للعمل في لبنان باتت نادرة، وأن الأفضلية ليست للكفاءة العلمية والقيم الخلقية بل للمحسوبية والانتماء المذهبي.

لعل أبرز العوامل الدافعة للشباب اللبناني للهجرة الراهنة نحو الخارج تكمن في انعدام فرص العمل، وتضخم حجم الدين العام في لبنان، والفساد السياسي والإداري والمالي وما نتج عنه أو رافقه من ارتفاع في نسب البطالة، والكساد التجاري، ومصادرة أموال المودعين في البنوك العاملة في لبنان، والنزاعات الطائفية والمذهبية، وارتباط لبنان بأزمة الصراع العربي - الصهيوني التي

ازدادت عنفاً في السنوات الأخيرة. فانعكست تلك العوامل مجتمعة على بنية النظام السياسي اللبناني، وعلى مستوى أدائه في حقول التنمية البشرية المستدامة. فبات عاجزاً عن تشجيع التعليم والبحث العلمي، وعن احتضان الكفاءات العلمية والمهنية ضمن إدارة مترهلة تقوم على تقاسم الوظائف بين زعماء السياسة وقادة ميليشيات الحرب في لبنان. فكثرت مغريات الهجرة التي جذبت أصحاب الكفاءة والإبداع من المثقفين وأصحاب المهن الحرة إلى الدول العربية الغنية، والدول العالمية المتطورة التي شكلت قطباً جاذباً لاستقرار اللبنانيين فيها بشكل دائم .

وغياب فرص العمل يقود بالضرورة إلى غياب المشاريع الإنمائية الطويلة الأمد التي تستقطب نسبة مهمة من اللبنانيين والتي تساهم في توليد أجيال متعاقبة من الشباب، وفي تعزيز حضور لبنان على المستويين الإقليمي والدولي. ويكمن دور لبنان المميز بوصفه ساحة للتفاعل الثقافي الحر بين مختلف الثقافات والعلوم العصرية .

وفي ظل دولة لبنانية مأزومة، ووزارات للخارجية والمغتربين، وللتربية والتعليم العالي، وللثقافة، ومراكز للبحوث والإنماء لم تتمكن جميعها من صياغة سياسة لبنانية عقلانية تحد من هجرة أصحاب المهن الحرة من لبنان إلى الخارج بشكل عام، وهجرة الأدمغة وأصحاب الكفاءات الإبداعية من اللبنانيين بشكل خاص.

ونظراً لفساد الطبقة السياسية الحاكمة لا تبدو السلطة قلقة من هجرة المثقفين والمبدعين الفنيين، والنخب المتميزة من أصحاب المهن الحرة. فكانت سياستها تعمل على التخلص من أعداد كبيرة من المثقفين اللبنانيين وتركهم عاطلين عن العمل. وتتوخى حل الأزمات الحادة لدى الشباب اللبناني عن طريق دفعهم للهجرة بحثاً عن العمل في الخارج. ولم تبادر للقيام بتدابير عملية للحد من هجرة الشباب والأدمغة. وليس لديها سياسة ثقافية واضحة للاستفادة من المبدعين اللبنانيين في وطنهم بل هاجسها التواصل معهم في مراكز عملهم الجديدة لحثهم على إرسال مساعدات سريعة لإنقاذ ذويهم الذين تعرضوا لإفكار ممنهج عبر مصادرة أموال أبنائهم المهاجرين من جانب أصحاب البنوك في لبنان. ولم تخطط السلطة اللبنانية الفاسدة لتأسيس لوبي ثقافي وسياسي ومالي لبناني يعبر عن وحدة اللبنانيين في مناطق الاغتراب. وتؤكد معطيات موثوقة أن السلطة في لبنان لا تضع هذه المسألة في سلم أولوياتها. علماً أنه في عصر العولمة تشجع كثير من دول العالم الهجرة الطوعية لعمالها ومثقفها ضمن مخطط للاستفادة منهم في إقامة صلات ثقافية مع البلدان التي هاجروا إليها. أصبحت هجرة اللبنانيين اليوم في جانب منها طوعية، وتطال شرائح الأكثر ثقافة، وخبرة إدارية ومالية وتكنولوجية، في حين تنقلص إلى الحدود الدنيا هجرات العمال غير المتخصصين أو الذين لا يمتلكون خبرة معمقة. ومن المتوقع أن تزداد ظاهرة هجرة الكفاءات، والأدمغة، والعمال اللبنانيين المهرة في المرحلة القادمة، إلى مختلف مراكز الجذب في عدد محدود من الدول الغنية والمتطورة، والتي لا تزال تفتح أبوابها لنسبة معينة فقط من أصحاب

الكفاءة العلمية، والخبرات المهنية .

نخلص إلى القول أن دراسة أزمة الهجرة اللبنانية في علاقتها بالنزوح، وبناء المجتمع المدني العلماني والديموقراطي في لبنان تقدم الدليل الملموس على أن مأزق النظام السياسي الطائفي في لبنان بعد انفجار مرفأ بيروت في ٤ آب ٢٠٢٠، ومصادرة البنوك لأموال المودعين، وانتشار وباء كورونا، وانهار سعر صرف الليرة اللبنانية وغيرها قد انعكس سلباً على قوى الإنتاج، وعلى الطاقات الأكاديمية العاملة في مختلف العلوم العصرية. ما يطرح ملاحظات منهجية حول مشكلات الانتشار اللبناني في العالم، وعلاقة المهاجرين اللبنانيين بوطنهم وآفاقها المستقبلية.

١- كانت حركة نزوح اللبنانيين من الأرياف إلى المدن الساحلية اللبنانية ظاهرة طبيعية ومستمرة منذ عقود عدّة. إلا أنها اتخذت طابع النزوح الجماعي والهجرة الدائمة بأعداد كبيرة منذ بداية الحرب اللبنانية حتى اليوم. ولم يقدم اتفاق الطائف مدخلاً لردع زعماء الطوائف والميليشيات عن الهيمنة على السلطة في لبنان. ولم تشكل الديموقراطية التوافقية حلاً للخروج من لعبة التجاذبات السياسية الطائفية التي شكلت عائقاً أساسياً أمام التنمية الشاملة. وكثرت عمليات بيع العقارات، والتعديلات على أملاك الدولة البحرية والنهرية والأميرية ومشاعات القرى التي ازدادت بصورة غير مسبوقه بسبب ضعف الدولة اللبنانية التي بنخرها الفساد على جميع المستويات.

٢- شكل قطاع البناء مركز جذب لاستثمارات المهاجرين اللبنانيين والمستثمرين العرب. لكن المضاربات العقارية أدت إلى أرباح خيالية، وبسرعة قياسية من دون أن تتال منها الدولة سوى نسبة ضئيلة. وتزايدت أسعار الوحدات السكنية المعروضة في السوق في حين بقي قسم كبير منها شاغراً لأن الطبقات الوسطى والفقيرة ومحدودة الدخل باتت عاجزة عن شراء مسكن. وشكل قانون الإيجار أزمة إضافية هددت استقرار عشرات الآلاف من اللبنانيين بالتشريد وإخراجهم قسرياً من مساكنهم.

٣- تقدر مساعدات المغتربين لذويهم ما بين ستة إلى سبعة مليارات دولار سنوياً. فشكّلت سندا قوياً للأسر اللبنانية وللإقتصاد اللبناني. وقد وظفت نسبة كبيرة منها في قطاع السياحة والخدمات. ولم توظف نسبة كبيرة من أموال المهاجرين في مشروعات إنمائية منتجة في الأرياف، رغم أن معظم المتمولين الجدد من المهاجرين كانوا من أصول ريفية. وزاد حجم السكن في ضواحي بيروت مقابل تضائل دور المدن اللبنانية الأخرى .

٤- لم يتمكن اللبنانيون من تنظيم أنفسهم في تجمعاتهم الجديدة فبات المجتمع يفتقد إلى الاستقرار الدائم الذي يشكل الأرض الصلبة لبناء الوحدة الوطنية الجامعة وانصهار الهويات الطائفية في هوية وطنية واحدة. وما زالت ذاكرة اللبنانيين أسيرة محطات تاريخية طائفية ذهب ضحيتها الآلاف منهم بين قتيل ومهجر. وتساعد تلك الذكريات الأليمة على الشحن النفسي الدائم

الذي يعمل لمصلحة زعماء الطوائف.

٥- شهدت سنوات ما بعد الحرب زيادة كبيرة في عدد المدارس، ووسائل الإعلان، والمؤسسات الصحية الطائفية والمذهبية التي انتشرت في جميع المناطق ولدى جميع الطوائف مقابل تراجع حاد في عدد المدارس غير الطائفية، وإضعاف دور الجامعة اللبنانية لصالح أعداد متزايدة من جامعات الطوائف التي نمت بسرعة قياسية ومن دون ضوابط أكاديمية ووطنية جامعة.

٦- لبنان اليوم بأمرٍ الحاجة إلى المثقف - الرمز إلى جانب المثقف - المعلم. فالمؤسسات الثقافية اللبنانية العريقة، الرسمية منها والخاصة على حد سواء، تبدو عاجزة عن استقطاب نسبة مهمة من المثقفين اللبنانيين المبدعين، ولم تستطع الحد من هجرة الكثيرين منهم إلى الخارج. وانتشرت مؤسسات ثقافية وإعلامية وصحية هدفها التجارة والربح السريع عبر الإتجار بالشهادات المزورة التي لا حصر لها، وبعضها مستمر منذ عقود عدة. وهناك نقص حاد في تمويل التعليم والصحة وفي الإعداد الجيد للنخب الأكاديمية والمالية والاقتصادية اللبنانية.

٧- يشهد لبنان اليوم هجرة أدمغة طالت آلاف المثقفين وأصحاب المهن الحرة، فتحوّلت الأزمة المستعصية الحل إلى مأزق مصيري يهدد بقاء لبنان الوطن الحر المستقل بسبب فساد النظام السياسي، وصعوبة الإصلاح الإداري والمالي والتربوي. والغالبية الساحقة من ذوي الكفاءة العلمية من اللبنانيين لا تثق بالمؤسسات الثقافية الرسمية التي توكل إليها الدولة شؤون الثقافة والإبداع الثقافي والفني والبحث العلمي والتعليم العالي والتقني. إذ لا مكان لأصحاب الكفاءة من المثقفين في المؤسسات الثقافية الرسمية لأنها تبحث عن انتمائهم الطائفي والمذهبي تبعاً لكونها الطوائف المعتمدة في تقاسم الوظائف الإدارية في لبنان. وتشير إحصائيات علمية إلى أن غالبية المثقفين المبدعين في لبنان تفضل إقامة أوثق الصلات مع مؤسسات ثقافية غير حكومية، وذات سمعة جيدة في لبنان والوطن العربي.

٨- إن الحفاظ على مناخ الحرية والديموقراطية، بالإضافة إلى التمويل الجيد للأبحاث العلمية، والحوار المثمر بين الباحثين، والنشر الجيد للأبحاث هي من القضايا الأساسية في علاقة المثقف اللبناني بالمؤسسات لكسب ثقة أصحاب الكفاءة والحد من هجراتهم الجماعية نحو الخارج. فالمثقف اللبناني الذي امتلك ثقافة عصرية، عقلانية، وعلمانية بحاجة إلى مؤسسات ثقافية تتمتع بالمواسفات عينها، لكي يحترمها ويقتنع بدورها، ويرى فيها القدرة على الاستمرارية وإقامة التواصل مع المثقفين العرب أولاً، ومع مثقفي جميع دول العالم.

٩- في هذه المرحلة المصيرية من تاريخ لبنان المعاصر تتحمل النخب اللبنانية المتنورة، والمؤسسات العلمانية التي تهتم بشؤون الثقافة والإبداع مسؤولية بارزة في استقطاب أعداد كبيرة من المبدعين اللبنانيين والحد من هجرتهم. ونظراً للثقة المفقودة بين هؤلاء المبدعين، على اختلاف انتماءاتهم السياسية وتوجهاتهم السياسية وبين المؤسسات الثقافية الرسمية التي تفتقر

إلى التنظيم والفاعلية الإدارية والمالية، بات سيل الهجرة الثقافية من لبنان مرشح لمزيد من التآزم في السنوات القادمة. فالشباب اللبناني الحر والمبدع متروك اليوم لمصيره، في حين تدور الندوات والمؤتمرات الثقافية في حلقات مفرغة تتكرر سنوياً من دون أن تضيف الكثير من الجدة إلى الثقافة ذات الطابع الإبداعي. ولا بد من قيام منظمات لبنانية متخصصة، بالتعاون مع مؤسسات عربية ودولية، رسمية وخاصة، تضع برامج سنوية قابلة للتنفيذ بحيث تتم الاستفادة من الطاقات الإبداعية اللبنانية الموجودة في الخارج، وإقامة حوار إيجابي معها، وتأسيس مكاتب متخصصة في جميع بلدان الاغتراب لرصد تلك الطاقات واقتراح الحلول العملية للشباب، واعتماد أفضل السبل للاستفادة منهم في مناطق وجودها في الخارج، وتنظيم ندوات دورية للتفاعل بين النخب الشبائية داخل لبنان وخارجه. صحيح أنّ هناك صعوبات مالية وإدارية وتنظيمية كبيرة لإطلاق تلك المنظمات، لكن الأهداف المرتقبة من قيامها تبرر كل التضحيات في سبيلها. فهي تستحق الدعم لكي ترعى شؤون الشباب في لبنان وتحد من هجرتهم. ويمكن تحويلها لاحقاً إلى صلة وصل بين الجامعات اللبنانية ومراكز الأبحاث العربية والعالمية. والنتائج التي يجنيها لبنان من قيامها أكثر من أن تحصى. كما أن نجاحها يشكل نموذجاً يحتذى في كيفية تحويل الهجرة إلى ظاهرة إيجابية تساهم في تنشيط الثقافة العربية وتجعلها قادرة على مواجهة تحديات عصر العولمة. ختاماً، تزداد أزمة المجتمع اللبناني حدة بسبب غياب خطط التنمية البشرية المستدامة، وغلبة سياسة الفساد والإفساد على مؤسسات الدولة. في الوقت عينه، تبدو المؤسسات الرسمية والخاصة، عاجزة عن وقف هجرة النخب اللبنانية، وأصحاب المهن الحرة، والعمال المهرة من وطنهم. وتشكل المؤسسات الأكاديمية العربية والعالمية مركز جذب لنسبة هامة منها لكن غالبيتهم تتجه نحو دول أوروبية وأميركية متطورة حيث تكاد تععدم لديهم الرغبة بالعودة إلى لبنان. فقيام منظمات لبنانية متخصصة في رعاية شؤون المهاجرين اللبنانيين وغير مرتتهنة سياسياً ومالياً وإدارياً للخارج، يمكن أن يشكل المدخل السليم لوقف نزيف الهجرة اللبنانية واستعادة عدد كبير منهم إلى وطنهم لإطلاق مشروع ثقافي نهضوي يعيد لمؤسسات المجتمع المدني دورها الرائد في بناء «وطن حر ومجتمع سعيد» ويحقق الاستقرار الاجتماعي والازدهار الاقتصادي والتنمية البشرية المستدامة في لبنان.

مراجع الدراسة

- أرزوني، خليل: «الهجرة اللبنانية إلى الكويت ١٩١٥-١٩٩٠». مكتبة الضقيه، لبنان، ١٩٩٤.
- حتي، إبراهيم: «خلاصة شرائع الهجرة». مطبعة الهدى، نيويورك، ١٩٢٤.

- حتى، فيليب «السوريون في الولايات المتحدة الأميركية». مطبعة المقتطف، مصر ١٩٢٢.
- حرفوش، نبيل: «الحضور اللبناني في العالم». دار الفنون، بيروت ١٩٨٨.
- رستم، ميخائيل: «الغريب في بلاد الغرب». نيويورك ١٨٩٥.
- شامي، علي حسين: «الاتجاهات العامة لحركة الهجرة». منشورات وزارة المغتربين، بيروت ١٩٩٦.
- شبلي، ميشال: «المهاجرة اللبنانية». بيروت ١٩٣٧.
- ضاهر، مسعود: «الهجرة اللبنانية إلى مصر، هجرة الشوام»، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت ١٩٨٦.
- = «الحركة السكانية في المشرق العربي في أواخر العهد العثماني: نموذج الهجرة إلى بيروت في القرن التاسع عشر». نشرت في كتاب صدر بإشراف الأستاذ عبد الجليل التميمي تحت عنوان: «الحياة الاجتماعية في الولايات العربية أثناء العهد العثماني»، زغوان، تونس ١٩٨٨.
- = «طرابلس في العهد العثماني: من مركز لولاية إلى مدينة ملحقة». نشرت في كتاب «المؤتمر الأول لتاريخ ولاية طرابلس إبان الحقبة العثمانية ١٥١٦ - ١٩١٨»، منشورات الجامعة اللبنانية، طرابلس ١٩٩٥.
- عطالله، محمد: «الهجرة مسألة لبنانية». الكسليك ١٩٧٣.
- فياض، دنيا: «الوجود اللبناني في أفريقيا واقعاً ومصيراً». وزارة المغتربين، بيروت ١٩٩٨.
- لبكي، جوزف: «الانتشار الماروني في العالم: واقع ومرتجى ١٨٤٠ - ٢٠١٠». منشورات جامعة اللوزية، لبنان ٢٠١٣.
- مروة، كامل: «نحن في أفريقيا»، دار المكشوف، بيروت ١٩٣٨.
- ملاح، عبدالله: «الهجرة من متصرفية جبل لبنان ١٨٦١-١٩١٨». لا مطبعة، ٢٠٠٧.
- هارون، أحمد: «التحركات السكانية في تاريخ لبنان المعاصر ١٩٣٤-١٩٩٧». دار الولاء، لبنان، ٢٠١٨.
- Safa, Elie: «L'émigration Libanaise», Beyrouth 1960.
- Taan, Dunia Fayyad: «Les Libanais en cote D.Ivoire», Beyrouth 1988.
- Hourani, Albert and Shehade, Nadim(ed): «The Lebanese the World». Centre for Lebanese Studies, Taurus, London 1992.

عن العولمة والـ«كورونا» والنظام العالمي الجديد

العميد م. ناجي ملاعب

بنهاية الحرب العالمية الثانية، اندفع المعسكران العالميان: الغربي والاشتراكي، في سباق تسلح نووي محموم، جدير بتدمير الأرض مرات عديدة: لقد وُلد العالم الجديد. التفوق العسكري لأميركا صاحبه تفوق دبلوماسي واقتصادي، فغنائم ما بعد الحرب صبّت جميعاً في مصلحتها، وتأسست الأمم المتحدة وجُعِل مقرها في نيويورك، وأصبح الدولار المرتبط بالذهب عملة عالمية قياسية بفضل اتفاقية «بريتون وودز»، وتأسس صندوق النقد الدولي والبنك الدولي، ومقرهما في واشنطن.

وُلدَ النظام الدولي الحالي، إثر انهيار الإمبراطورية البريطانية، وقيام «الإمبراطورية» الأميركية، لقد بلغت بريطانيا في أوج قوتها مرتبة "أكبر إمبراطورية عرفها التاريخ"، واحتلت طوال قرن لقب «القوة العالمية الأولى»، ومع أنها خرجت منتصرة في الحرب فإنها كانت قد هُزمت، فجاءت الحربان العالمية الأولى والثانية لكي تُطيحاً بها، وما لبثت أن تخلت عن مستعمراتها التي لم تغب عنها الشمس.

وفيما كانت أوروبا تفرق في أزمة اقتصادية خانقة تدخلت الولايات المتحدة، عبر «مشروع مارشال»، لإعادة بناء أوروبا الغربية، لم تكن الأموال التي أنفقتها الولايات المتحدة في أوروبا محض عمل خيري، بل كانت ضرورية لوفاء أوروبا بسداد ديونها للولايات المتحدة التي صارت، منذ ذلك الوقت، صاحبة اليد العليا، وتخلّت أوروبا عن كبرياتها التاريخية، وقبلت أن تسيّر خلفها.

في عصر هيمنة القوة الواحدة، عصر العولمة والتكنولوجيا، اليوم، ما هو المنتظر للمستقبل القريب والبعيد، بعد انتشار جائحة «كورونا»، وبعد قيام عالم متعدد الأقطاب، هل صمدت التكتلات القومية من خارج النفوذ الأميركي؟ وهل من نظام عالمي جديد يواكب التقدم التكنولوجي الواعد؟

في مقدمة هذه الدراسة سنعرض لبناء القوة الأميركية الأحادية بعد الحرب الباردة، وصولاً إلى عصر العولمة، من ثم نلفت إلى نظرة دوائر القرار في واشنطن للعالم للعقود الثلاثة المقبلة. ونبحث في دور تسليح الفضاء كحلبة صراع جديدة ما بين الصين وأميركا، وناقش الظروف التي واكبت انتشار وباء «كورونا» ومدى تأثيره على النظام العالمي، وهل صحيح أن كل السياسات والأيدولوجيات والفلسفات سوف تتحى جانباً أمام الثورة الرابعة بتقنيات الذكاء الاصطناعي، وتسري بنا إلى نظام عالمي آخر؟

أولاً - النظام العالمي المعولم أميركيّ بامتياز

كانت أميركا قبيل دخولها الاضطراب في الحرب العالمية الثانية تُفضّل العزلة الدولية، مستندة إلى عقلية الجزيرة الحصينة البعيدة عن مواطن النزاع في أوروبا، ولم يزد تعداد

جيشها قبل الحرب على ١٧٤ ألفاً، ليحتل بذلك المرتبة الرابعة عشرة على مستوى العالم! إن الذي ساعد الولايات المتحدة على تحقيق قفزات استراتيجية سريعة هو الطبيعة الديناميكية المنفتحة لمجتمعها الذي هو مجتمع مهاجرين شديد التنوع، يحتفي بالنجاح والابتكار. ففي سنوات الحرب الخمس قفز تعداد الجيش الأميركي إلى ١١ مليون مقاتل، مجهزين بأضخم آلة عسكرية عرفتها البشرية، وخاضت الحرب بكفاءة، ثم توجت هيمنتها باختراع السلاح النووي، فبادرت إلى استخدامه ضد المدنيين في ناغازاكي وhiroshima دون رحمة. لم يكن قتل مئات الآلاف من المدنيين ضرورة لا مناص منها لوقف الحرب مع اليابان التي كانت تترنح وترسل مؤشرات استسلام، إلا أن الرئيس ترومان أراد من استخدام السلاح النووي أن يُدشّن عصر تفوق أميركي لا يُضاهى، وعينه في ذلك الوقت على الاتحاد السوفياتي؛ الحليف الحالي والخصم المستقبلي.

إن الآلة العسكرية الجبارة وإحكام السيطرة على النظام الاقتصادي العالمي عوّد أميركا على ثقافة استعلاء مؤسّسة على ركنين رئيسيين: الطغيان العسكري، والجشع الاقتصادي. وقد وسّعت الحرب الباردة دائرة الاستقطاب بين المعسكرين لتشمل العالم كله وجميع مناحي الحياة. فاندلعت ثورات العالم الثالث الطامح إلى الفردوس الاشتراكي الموعود، ودعمت أميركا أنظمة مستبدة، وخاض الطرفان حروباً بالوكالة كان وقودها العالم أجمع. فشكّل عالم الحرب الباردة صورة صادقة عن روح النظام الدولي: صراع صفري من أجل الهيمنة والبقاء، أما شعارات التحرر والعدالة الاجتماعية التي روجها الاتحاد السوفياتي، وعود الديمقراطية وحقوق الإنسان التي روجها الغرب، فلم تكن سوى أدوات في المعركة. لقد كان الصراع في جوهره استراتيجياً لا مكان فيه للأخلاق ولا للقيم، إلا «للأيدولوجيا المسلحة»؛ أي تلك النظريات التي يروجها الطرفان، اشتراكية كانت أم ليبرالية، من أجل بسط الهيمنة وتوسيع دائرة النفوذ.

وُلدت الليبرالية في القرن السابع عشر، ووُلدت الاشتراكية في القرن الثامن عشر، ولكل منهما مبادئ إنسانية جديدة بالاحترام، إلا أن الأزمات نقلتهما من خانة القيم الإنسانية إلى خانة التوظيف الاستراتيجي، وهذه الخطيئة الثانية التي ارتكبتها النظام العالمي: وظّف المقدس لخدمة الصراع، فكل شيء ليس إلا أداة في صراع تسيدي مجنون، كل شيء ينبغي أن يكون حطياً في جحيم التنافس الجهنمي.

وبعد انهيار جدار برلين عام ١٩٨٩ م، ومع انهيار المعسكر الاشتراكي، بدأ أن الليبرالية الغربية قد حققت عن جدارة انتصارها النهائي، فاندفعت معظم دول العالم النامي بما فيها دول أوروبا الشرقية، في مطلع التسعينيات، إلى تنظيم انتخابات ديمقراطية - شكلياً في معظم

الأحيان - تزلزلاً لانتصار الليبرالية العالمية المزعوم، وبدا أن الغرب قد رسم الشكل النهائي للتاريخ وإلى الأبد، وتوج أميركا على عرش الهيمنة العالمية من دون منازع، واندفع العالم المنبهر بكل ما هو أميركي صوب القبة الأولى للسياسة الدولية: واشنطن.

لم تُضَع أميركا الوقت في الاحتفال، بل عكفت على صياغة العالم الجديد على صورتها، فوظفت تفوقها العسكري لتصبح شرطي العالم، وامتطت العولمة الاقتصادية لتكديس أكبر ثروة عرفتها البشرية، مخلفة فوارق هائلة بين الأغنياء والفقراء. فتأسست منظمة التجارة العالمية عام ١٩٩٥م لرعاية العولمة الاقتصادية، واعدةً العالم بالمدد المستمر للمواد الخام والسلع، لكن الاقتصاد الأميركي كان المستفيد الأول، فعاش في التسعينيات أفضل أوقاته: معدلات نمو عالية، تضخم منخفض، معدلات بطالة تقل عن ٥٪، وأسواق مال مزدهرة تقودها طفرة الاستثمار الرقمي.

يتأثر الدكتور مايكل أوهانلون أستاذ العلاقات الدولية في جامعة «هارفرد» بكتاب زميله بروس جونز، مدير «مركز جامعة نيويورك للتعاون الدولي»، وهو بعنوان: «لا تزال القيادة لنا: أميركا، القوى الصاعدة والتوتر بين التنافس وضبط النفس». فيقول: «إن البديل عن النظام العالمي الذي تقوده الولايات المتحدة، إذا كان موجوداً، لم يعرفه أحد في واقع الأمر ولم يحدده أي منظرٍ أو كاتب أو رجل دولة على قدر من المصداقية. ثمة نتيجتان أساسيتان رسختا في ذهني بعد قراءة الكتاب:

النتيجة الأولى، أنه «لا توجد قذائف هاون في بلدان بريكس» فجونز يركز على عدم التقليل من شأن إنجازات أي من القوى الصاعدة. بل هو يبرهن بشكل مقنع وأصيل، أنها لم ولن تشكل كتلة جيواستراتيجية بديلة عن المجتمع الغربي (مثل الاتحاد الأوروبي والنااتو ومجموعة السبعة) وما فيه من أنظمة ديمقراطية هي الأكثر تقدماً بشكل عام من أي تجمع دولي آخر قائم. إن مصالح دول «البريكس» لا تجتمع بشكل طبيعي حول أي أجندة واضحة بل تختلف مع بعضها البعض بقدر ما تتوافق، والكثير من مصالحها في الواقع تتماشى مع مصالح القوى الناشئة، وهي تسعى إلى أفضل تعاون معها، وقد عبرت عن ذلك بأنفسها بالفعل.

النتيجة الثانية، أن أميركا والصين ليستا صديقتين طبيعيتين بكل معنى الكلمة، لكن بالكاد يرجح أن تصبحا عدوتين. بل إنهما - كما كتب جونز «متنافستان، وليستا متحاربتين في حرب باردة». بالتأكيد، الجميع يراقب المشهد الدولي اليوم ويتبين مخاطر هذه العلاقة الحاسمة وفي كثير من الأحيان، آثار تعقيدات العلاقات بين الصين وحلفاء أميركا الرئيسيين في شرق آسيا. لذا، في حين أن المستقبل لا يزال بعيداً ويصعب التنبؤ به، فإن حالة الأمل حول هذه العلاقة وحول آفاق السلام بين القوى العظمى عموماً في العقود المقبلة تعتمد على التوازن أكثر

من اعتمادها على القوة إلى حد ما. فالبُلدان كل منهما بحاجة إلى الآخر، ويستفيد أحدهما من الآخر، ومرة أخرى، كلاهما ذكي بما فيه الكفاية لمعرفة ذلك.

وكانت هجمات ١١ سبتمبر/ أيلول قد أفقدت أميركا توازنها الاستراتيجي والاقتصادي، واندفعت الآلة العسكرية وراء حرب عبثية طويلة باهظة الكلفة في أفغانستان والعراق. وبينما انشغلت القوة العظمى بمطاردة أشباح في الكهوف والصحاري، تفرغت الصين وروسيا لاستعادة عافيتهما الاقتصادية ونفوذهما الدولي، لقد كانت الحرب على أفغانستان والعراق أكبر خطأً استراتيجي ارتكبه الولايات المتحدة، ولا يمكن فهم سبب هذا الخطأ إلا في إطار التسيّد الذي أسسته لنفسها بعد الحرب الباردة: البطش العسكري والتفرد بالزعامة.

ثم جاءت الأزمة الاقتصادية العالمية عام ٢٠٠٨م، فضربت أسواق الولايات المتحدة ثم أوروبا وبقية العالم، واستمرت الأزمة تعيد تشكل الاقتصاد العالمي، وانتهت إلى تراجع تدريجي للنفوذ الأميركي، وصعود الصين كمنافسٍ فتّي خفيف الحركة سريع النمو، وصولاً إلى حرب باردة جديدة، لكنها هذه المرة اقتصادية، فاندفعت إدارة ترامب بخطوات غير مسبوقة لفرض رسوم جمركية على البضائع الصينية، وتشجيع الشركات على بناء خطوط تصنيعها في الولايات المتحدة، وشن حظر على شركات صينية تقنية، كشركة هواوي، لمنعها من بناء الجيل الخامس للإنترنت عالمياً، وضغط على حلفاء أميركا ليحذوا حذوه، كل ذلك للحد من صعود الصين وإبطاء نموها، وإبقاء التفوق الأميركي أطول مدة ممكنة، وفي هذه الأجواء داهمنا عصر «كورونا».

ويخلص أوهانلون إلى أن «الأسس التي يعتمد عليها جونز كسبب للتفاوت الحذر حول الولايات المتحدة والنظام الدولي بصفة عامة – الذي بني إلى حد كبير ولا يزال متماسكاً بطرق مختلفة – تتضمن بعض الملاحظات والقياسات التي أجدها شخصياً مقنعة في أبحاثي وكتاباتي كذلك. فأميركا لا تزال تتولى القيادة في الإنفاق على البحث والتطوير العالميين، من حيث نوعية جامعاتنا، في مجال الابتكار وبراءات الاختراع والتصنيع المتقدم في المواد الصيدلانية والفضاء وغيرها من التكنولوجيات الرئيسية المتطورة، وكذلك الانفتاح والشفافية والاعتماد القانوني لاستثماراتنا ومناخات أعمالنا وتجارتنا».

ويضيف أنه «رغم إخفاقنا في إصلاح قوانين الهجرة، لا نزال بوثقة العالم الأكثر إغراء، ويمكن القول أننا أصحاب الملف الديموغرافي الصحي أكثر من أي قوة عظمى (نمو سكاني حقيقي متواضع وسكان لا يشيخون تقريباً بالسرعة التي يشيخ بها السكان في أوروبا واليابان وروسيا والصين). ورغم جهودنا في تنفيذ انسحاب تدريجي من منطقة الشرق الأوسط وسجل مختلط في الحروب الأخيرة هناك، فنحن لدينا الآن بطبيعة الحال أكبر وأقوى جيش في العالم».

من ضمن الكثير من تلك النقاشات يركز بروس جونز على كتاب روبرت كاغان «العالم صنع أميركا» القصير والمثير للإعجاب الصادر قبل بضع سنوات، والذي لا يقدم ملخصاً موجزاً عن نقاط القوة الأميركية الدائمة فحسب، بل تذكيراً في الوقت المناسب بحقيقة مفادها أن عالم اليوم – الذي أصبح سلمياً ومزدهراً بشكل عام وفقاً للمعايير التاريخية – لم ينشأ من تلقاء نفسه ولن يكون مستداماً من تلقاء نفسه في أي وقت قريب. لكن جونز يتقدم بخطوة مهمة من خلال مناقشته لجوانب متعددة في عالم اليوم – من حيث أنها عضوية وصولاً إلى كيفية عملها – مواتية بطبيعتها لتعزيز موقف أميركا. ويؤكد أن قوتنا اليوم تعتمد إلى حد كبير على التحالفات والاتلافات ولا تعتمد فقط على دفا تر محاسبية بسيطة تظهر قدرتنا الوطنية، ونحن حالياً في وضع جيد إلى حد ما في اتلاف الإدارة رغم كل عيوبنا والنواقص التي نعاني منها في حالات معينة.

فمن الناحية العسكرية، لدى الولايات المتحدة العشرات من الحلفاء يسجلون على الأقل ٣٠ في المئة من قيمة الإنفاق الدفاعي في العالم تضاف إلى ٤٠ في المئة من ذلك الإنفاق نقدمها بأنفسنا. ومن الناحية السياسية، نحن نمتلك أقوى ديمقراطية في عالم تحكمه الأنظمة الديمقراطية بشكل متزايد رغم أن هذا البيان يبدو غريباً في ضوء صعود الصين. في المجال الاقتصادي، يمكن القول أننا من بين أكثر الدول راحة ويسراً في هذا السياق بما يتناسب بشكل طبيعي مع العولمة في عالم تهيمن عليه فكرة الترابط والتواصل بين الدول بصورة متزايدة. من ناحية ثانية، يطمئن الباحث الأميركي أوهانلون إلى أنه رغم أن «إيران وكوريا الشمالية والحضور الروسي في تطورات الأزمة الأوكرانية وتوترات الربيع العربي تسبب شعوراً أميركياً بالتعب والتوجس من المستقبل، هناك أسباب قائمة للتفاؤل الحذر حول الولايات المتحدة والنظام الدولي بصفة عامة يراها بعض الأكاديميين مقنعة وفاعلة.

ويضيف: قبل سنوات عدة، في سياق الركود العظيم بعد غزو العراق وأفغانستان انتشرت موجة من الكتب التي تصور وتشرح تراجع أميركا المزعوم والقابل للجدل. لقد درس علماء وكتاب مرموقين أمثال إيكبري وكوبشان وكاغان وإيدلمان وزكريا وفريدمان وماندلباوم وبريمر وبريجنسكي قوة أميركا في سياق النظام العالمي المتغير بسرعة. وكان هذا الجدل قد بدأ منذ أواخر الثمانينيات عندما قاد بول كينيدي وصموئيل هنتغتون نقاشاً وطنياً حول ما ينبغي أن يكون «وقتاً سعيداً» من الناحية الجيوسياسية في فترة «الغلاسنوست» و«البريسترويكا» السوفياتية التي تلتها مرحلة نهاية الحرب الباردة، لكن التي أصبحت مرحلة تشك فيها أميركا من قدرتها على التنافس طويل الأجل، وبالتالي قدرتها في المدى الطويل على البقاء كقوة عظيمة.

ثانياً: الأوبئة وتأثيرها على الأنظمة الإجتماعية والسياسية والاقتصادية ١ - من تداعيات جائحة «كورونا»

- إبطاء العولمة الاقتصادية، وهذا تيار ليس جديداً، فقد بدأ منذ ثلاث سنوات، بسبب السياسات التي سنّتها إدارة ترامب، إلا أنه الآن سيتعزز عالمياً، إذ ستسارع الشركات والدول إلى امتلاك بنى تحتية ذاتية تقلل اعتمادها على الأسواق العالمية.

- نحو الانكفاء، وتصاعد المد القومي، ولسان حال دول العالم: نفسي نفسي، وبالطبع فلن يقف الانكفاء عند حدود الاقتصاد، بل سيتعداه إلى تعزيز نزعات قومية وعنصرية، وهي توجهات رأيناها تتصاعد في السنوات الماضية، فجاء «كورونا» ليزيد الخوف من الآخر مصدر العدوى، فأغلقت الحدود، وتصاعدت الأنانية القومية، ما سيعزز الانكفاء على الذات، وسيدفع باتجاه كراهية الأجانب، والحقد على الأقليات، واستهداف اللاجئين.

- نظام دولي ذو قطبية مرنة، فالنظام الدولي القادم سيقوده قطبان رئيسان هما الصين وأميركا، ولكنه لن يكون بصرامة القطبية التي رأيناها في الحرب الباردة. عالم ما بعد «كورونا»، ولفترة قد تطول، منكفئ على ذاته، يحيط به الخوف من الفقر، وتتصاعد فيه النزعات العنصرية، وهذه وصفة جاهزة لحروب أهلية وأخرى عابرة للحدود، وهنا سنلتفت إلى تأثير ذلك على وظيفة الدولة ومؤسساتها الأمنية في المرحلة القادمة.

- أجواء الخوف والتوتر تدفع الناس للتخلي طوعاً عن حرياتهم من أجل الأمن، والإجراءات الاستثنائية التي سننتها معظم الدول مبررة بالفعل، لأنها تأتي في سياق احتواء الجائحة، إلا أن عواقبها البعيدة لن تكون حميدة، فإن الدولة ستجد مبررات عديدة للإمساك بالأمر بقبضة من حديد.

- مصادرة خصوصية الناس، ومما سيزيد الأمر خطورة هو استخدام التكنولوجيا الذكية في ذلك، ونحن اليوم أمام اللحظة التي ينتقل الاعتداء على الخصوصية من خانة المذموم إلى خانة المحمود، فأمام جائحة «كورونا» تُشكر السلطات على استخدام تقنيات التعرف على الوجوه، وتحديد الأماكن، وشبكة المعارف، كل ذلك في سبيل احتواء الفيروس، وهذا من الأسباب التي جعلت تجربة الصين في احتواء المرض ناجعة، وستحذو دول العالم حذوها، وسيتم اختراع تطبيقات جديدة أكثر دقة للتعرف على البيانات الحيوية للناس، كالخارطة الجينية ودرجة الحرارة وضغط الدم، وهي معلومات لا تحدد الحالة الصحية للإنسان فحسب بل يمكن أن تحدد المزاج النفسي كذلك.

- صعود قوى غير ديمقراطية للحكم، فإذا أخذنا بالاعتبار أن اليمين المتطرف قد ينجح في الصعود إلى سدة الحكم في عدد من دول العالم، فإننا أمام سيناريو مخيف، يتلقف المتطرفون فيه أدوات سيطرة الدولة، ويندفعون باتجاه الهيمنة المطلقة على خصوصيات الناس وعلى أفكارهم

وآرائهم، بل سيتعدى خطر ذلك ليطال مغامرات عابرة للحدود. سيكون العالم أشد خطورة بوجود حكومات متسلطة ترفع لواء العنصرية والشعبوية.

٢ - «كورونا» والعولمة الأميركية

العالم الذي نعيشه اليوم متشابك ومتداخل، والعولمة هي السمة الأهم للمنظومة الدولية، وللعولمة ركنان أساسيان: الأول اقتصادي، والثاني تقني، وفي الوقت الذي ستراجع فيه العولمة اقتصادياً بسبب أزمة «كورونا» سوف تواصل التكنولوجيا الدفع بها إلى الأمام، ولذلك فالعولمة مستمرة ولكن بوتيرة مختلفة وبقيادة متعددة الأقطاب.

بنت العولمة اقتصاداً يعود بالربح الوفير على المصنعين، ورسخ في ذهن الجميع يقيناً تاماً بديمومة خطوط الاستيراد وسرعة توريدها، إلى أن أطلت أزمة «كورونا» وهزّت هذا اليقين، فالمصانع تتعرض للإغلاق الجزئي أو الكامل لفترات غير محددة، وبقرار من الدول، ليس وفقاً لمبادئ العرض والطلب، وهو ما قذف الأسواق العالمية في حُمى الاضطراب وعدم القدرة على التنبؤ بالمستقبل، فانهارت أسواق المال والبورصات، وتراجعت توقعات النمو، وازداد الخوف من ركود عالمي كبير.

التأثير الصحي لجائحة «كورونا» سوف يزول مع الزمن، وسوف تتجاوز البشرية خطرها كما تجاوزت أوبئة وطواعين وحروباً سابقة، لكن الأثر الاجتماعي والسياسي والاقتصادي سيبقى سنوات، وربما عقوداً قادمة.

يتساءل جوزيف س. ناي Nye Joseph s. الباحث في جامعة «هارفرد» بالقول: «إن مفتاح الأمن والازدهار المستقبليين لأميركا هو تعلم أهمية «السلطة مع» وكذلك «السلطة على» الآخرين. تضع كل دولة مصالحها أولاً، ولكن السؤال المهم هو كيف تحدد هذه المصالح على نطاق واسع أو ضيق، فقد أظهرت هذه الإدارة ميلاً نحو تفسيرات المعاملات قصيرة المدى، صفرية، مع القليل من الاهتمام للمؤسسات والحلفاء. ويتم تعريف «أميركا أولاً» بشكل ضيق للغاية. إنها تتراجع عن المصلحة الذاتية طويلة المدى والمستتيرة التي ميزت الاستراتيجية الأمنية التي صممها روزفلت، وترومان، وأيزنهاور بعد عام ١٩٤٥. ليخلص إلى أن التهديد الجديد لأمن أميركا ليس فقط من القوى عبر الوطنية مثل COVID-١٩ وتغير المناخ، ولكن من فشل الأميركيين المحلي في تعديل مواقفهم تجاه هذا العالم الجديد. هذا هو الدرس المؤلم الذي تعلمنا إياه COVID-١٩.

٣ - الصين و«كورونا» وطريق العولمة

لقد أخفت الصين انتشار الفيروس في أراضيها ثلاثة أشهر، وارتكبت بذلك خطيئة كبرى سببت انتشاراً عالمياً، ثم اتخذت إجراءات استثنائية، أصابت اقتصادها بتراجع حاد، لكنها نجحت في احتوائه، بعدها انطلقت في تلميع صورتها، فبادرت إلى مد يد العون لدول خذلها

حلفاؤها، مثل إيطاليا وصربيا، مقدمة نموذجاً جديداً للتضامن الدولي. وإذا نجحت الصين في اكتشاف لقاح أو دواء للمرض، فستكون أقدر من الولايات المتحدة على تصنيعه بسرعة أكبر وتكلفة أقل، وسيكرس ذلك ريادتها العلمية والتقنية.

المهم استراتيجياً هو سرعة تعافي الصين اقتصادياً وقدرتها على استئناف الإنتاج في مصانعها، وهو ما يتحقق بالفعل، وتأمل الصين أن تحقق معدلات نمو عالية تعوض فيها النقص الذي طرأ في الشهور الماضية، وغالباً ستنجح في ذلك، لا سيما إذا طال أمد الأزمة في أميركا وأوروبا. ولكن هل ستُسَلِّم أميركا لها؟ هذا ليس متوقفاً على الإطلاق، فهي ستسعى بكل ما أوتيت من قوة للاحتفاظ بريادتها العالمية، عندها ستضطر إلى مواجهة صفرية مع الصين، هذه المواجهة ستبني نظاماً ثنائي القطبية، وسيكون المحرك الذي يشكل النظام الدولي الجديد. تعرف الصين أن المواجهة مع أميركا قادمة لا محالة، وتدرك أن صعودها الاقتصادي يحتاج قوة عسكرية لحمايته. فقد نهجت في العقود الماضية سياسة الابتعاد عن الأزمات الدولية، وأفسحت المجال لأميركا وغيرها للانخراط في حروب وأزمات جيوسياسية، إلا ما اقتص بالأمم المتحدة الصيني المباشر، المتمثل في تايوان والتبت وبحر الصين الجنوبي، لكن هذه السياسة لن تستمر طويلاً، وهي بدأت بالفعل تطوير منظومتها العسكرية، وانخرطت في تحالفات إقليمية، وسوف تضطر للتدخل بشكل أكبر في نزاعات عالمية، ذلك لحماية مصادر المواد الخام في أفريقيا وأميركا اللاتينية، وحماية أسواقها في آسيا، وضمان حرية النقل الذي ينبغي على مشروع الحزام والطريق أن يقوم به. والصين بعيدة جداً عن تطوير بنية عسكرية تواجه فيها أميركا، فالقدرات العسكرية الأميركية لا تُضاهى، وهي لن تنجر إلى مواجهة عسكرية معها، لكنها ستعتمد استراتيجية تُرهق فيها الأسد الجريح، وتستنزف قوته، بينما تعزز من حضورها الدولي، وتوسعها الاقتصادي.

ستحقق الصين صعوداً اقتصادياً، لكنها لن تحتل المكانة التي تحتلها أميركا على المسرح العالمي، ولن تستطيع بناء عولمة صينية، فعزلة الصين الثقافية، وارتفاع الفجوة بين الساحل المتطور والداخل الصيني الفقير، وديكتاتورية الحزب الواحد، وسياسة التحكم المركزي، والانغلاق الإعلامي لن تكون مفيدة في بناء منظومة عالمية تكون الصين مركزها.

٤ - ماذا عن الإتحاد الأوروبي

تأسس الإتحاد الأوروبي في ما بعد الانتصار الغربي الماحق على الإتحاد السوفياتي، وكما حملت تسعينيات القرن الماضي الرخاء لأميركا فقد عاش الإتحاد الأوروبي عصره الذهبي، لقد حقق للقارة العجوز تقاعداً مريحاً، فقد وعد الإتحاد مواطنيه بالأمن الجماعي والرخاء الاقتصادي، وقد تحقق الأمن بالفعل بعد الرعب الذي سيطر على القارة أثناء الحرب الباردة،

واستطاعت منظمة الناتو أن تؤمن القارة ضد روسيا المُتعبّة المُهانة، وأن تقدم الدعم للدول التي خرجت من عباءة الاتحاد السوفياتي، لدرجة استفزت أكثر السياسيين الروس انفتاحاً على الغرب، ما دفع روسيا تحت قيادة بوتين إلى أن تلتقط أنفاسها وتتحرك للدفاع عن عمقها الاستراتيجي، فاجتاحت القوات الروسية شمال جورجيا عام ٢٠٠٨، فأصيب الناتو بالصدمة والشلل، ووقف عاجزاً عن فعل أي شيء، ثم اجتاحت القوات الروسية شرق أوكرانيا، وضمت جزيرة القرم في ٢٠١٤، ولم يفعل الاتحاد الأوروبي شيئاً مرة أخرى، سوى الإدانة وتقديم مساعدات متواضعة لأوكرانيا، هنا اهتز الوعد الأول من وعود الاتحاد: الأمن الجماعي. ويرى وضاح خنفر أن الاتحاد الأوروبي لن ينهار قريباً، فالمنظمات الإقليمية والدولية لا تموت، لكنها إما أن تتطور أو تنزوي، والاتحاد الأوروبي يحتاج أكثر من أي وقت مضى لإعادة تأهيل ذاته، ولا يبدو ذلك على وشك الحدوث، إذا أخذنا بالاعتبار صعود اليمين المتطرف المعادي للفكرة الأوروبية، ولذلك فمن المتوقع أن تنشأ كتلات داخل الاتحاد بين دول متقاربة في مصالحها الاقتصادية أو نزعتها السياسية، لفترة ليست قصيرة، بانتظار قيادة للاتحاد تقوم على تطويره ليتوافق مع مصالح أوروبا بشكلها الجديد، والدولة الوحيدة القادرة على ذلك هي ألمانيا، لكنها تدخل هي الأخرى أزمات سياسية يسببها تصاعد اليمين المتطرف.

ثالثاً: نظرة دوائر القرار الأميركي للمستقبل والسيناريوهات المحتملة

١ - عام ٢٠٤٠ بعيون الاستخبارات الأميركية

أصدر مكتب مدير الاستخبارات الوطني الأميركي تقريراً يتنبأ بشكل العالم في عام ٢٠٤٠، معتمداً في تقييمه على آراء أكاديميين ومحللين ومسؤولين استخباراتيين، لرسم سيناريوهات تقريبية تساعد صناعات القرار الأميركيين على وضع الإستراتيجيات والتنبؤ مبكراً للمشكلات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، في أميركا والعالم.

ويصدر المكتب كل أربع سنوات، منذ ١٩٩٧، تقريراً بعنوان «الاتجاهات العالمية»، يقيم فيه أهم الاتجاهات والتقلبات السياسية التي ستؤثر استراتيجياً في الولايات المتحدة. وينقسم التقرير إلى ثلاثة أجزاء رئيسية: «القوى الهيكلية»، ثم «الديناميات الصاعدة»، ثم ينتهي بسرده خمسة سيناريوهات متوقعة لشكل العالم والنظام العالمي في عام ٢٠٤٠.

يظهر في التقرير بمختلف أقسامه خمس سمات أساسية للمستقبل:

- التحديات العالمية **Global Challenges** تظهر هذه التحديات حول العالم، دون تدخل بشري مباشر في أغلبها، لتضغط على المجتمعات وتسبب صدمات قد تكون كارثية غالباً، تحديات مثل: التغير المناخي، والأمراض، والأزمات الاقتصادية، ومشاكل التكنولوجيا.

فمثلاً ، تسبّب وباء «كوفيد-١٩» في أكبر اضطراب عالمي منذ الحرب العالمية الثانية، وستستمر توابعه الصحية والاقتصادية والسياسية والأمنية لسنوات. وستزيد آثار التغير المناخي - غالباً - من سوء أزمات الأمن الغذائي والمائي، والهجرة، والتحديات الصحية، وتراجع التنوع الحيوي في البيئة.

وتستمر تقنيات جديدة في التطور والظهور، ثم الاختفاء، بسرعة متزايدة تسبّب اضطراباً في أنماط العمل (الوظائف) وفي المجتمعات، وفي التصنيع، وفي طبيعة القوة والسلطة، وفي معنى أن تكون إنساناً. وستستمر ضغوط الهجرة العالمية، على الدول التي يهاجر منها الناس والدول التي تستقبلهم، فمثلاً، في عام ٢٠٠٠ عاش ١٠٠ مليون في دول هاجروا إليها، وزاد الرقم في ٢٠٢٠ ليصل إلى ٢٧٠ مليوناً يعيشون في دول المهجر. هذه الأزمات والتحديات ستتقاطع وتتابع بطرق يصعب توقعها، وستوسّع من مفهوم ومساحات «الأمن القومي» الذي لن يقتصر على الدفاع العسكري ضدّ الجيوش والمخاطر الأمنية التقليدية.

- الانقسام **Fragmentation** تصعب حالة الانقسام العالمية المتزايدة من التعامل مع التحديات السابق ذكرها، وللمفارقة، فإن الزيادة المستمرة في الاتصال والتواصل من خلال التكنولوجيا والتجارة وحركة الأفراد، هي نفسها التي تسببت في انقسام وتفكك الدول والشعوب.

والاتصال، بمعنى الترابط والتشابك، سيساعد البشر على توفير مستويات معيشة أفضل، ولكن سيتسبب في خلق وزيادة التوترات، في المجتمعات المنقسمة والمختلفة على القيم وعلى أهدافها الأساسية، وصولاً إلى الحكومات التي ستوظف القمع الرقمي للسيطرة على الشعوب. - اختلال التوازن **Disequilibrium** التحديات العالمية وآثارها المتجاوزة للدول والشعوب، يفوق حجمها قدرة الأنظمة والهيكلية الموجودة اليوم على معالجتها، ما يفتح الباب للسمة الثالثة للاتجاهات العالمية: اختلال التوازن.

وعلى صعيد المجتمعات والدول، من المرجح أن تظهر فجوة مستمرة ومتزايدة بين ما تريده الشعوب وما يمكن أن توفره الحكومات والشركات. ونتيجةً لهذه الاختلالات، تضعف النظم والأطر القديمة، بما يتضمن المؤسسات والعادات والتقاليد وأنظمة الحكم السياسية، وتتآكل أحياناً، وستضطر المجتمعات البشرية لمناقشة نماذج جديدة لكيفية «بناء الحضارة». - التنازع **Contestation** يأتي التنازع داخل المجتمعات والدول والنظام العالمي نتيجةً مباشرةً للاختلال في التوازن وما يسببه من تزايد التوتر والانقسامات والمنافسات، وستصبح السياسة الداخلية في الدول المختلفة متقلبةً وخلافيةً، ولن يُستثنى من هذه الظاهرة

أي منطقة أو أيديولوجية أو نظام حكم.

وعلى الصعيد الدولي، ستصبح البيئة الجيوسياسية أكثر تنافسية، في ظل تحدي الصين للولايات المتحدة والنظام العالمي الذي يقوده الغرب، وستتسابق الدول لتأسيس واستغلال القواعد الجديدة للنظام العالمي.

– التكيف **Adaptation** أي لاعب دولي يسعى للتفوق على منافسيه يجب أن يتحلّى بقدرة على التكيف والتأقلم، وذلك في قضايا مثل التغير المناخي والديموغرافي والتكنولوجي. وفي حالة التغير المناخي، قد يتطلب التكيف تنفيذ خطوات عديدة، بعضها غير مُكلف، مثل: استعادة الغابات التي خربها الإنسان، ومنها المعقد، مثل: بناء جدران بحرية، أو التخطيط لنقل مجموعات بشرية كبيرة من مناطق سكنها إلى مناطق أخرى.

وستكون التكنولوجيا وسيلةً فعالة للتكيف، فيمكن أن تزيد الدول من الفرص الاقتصادية بتوظيف تقنيات مثل الذكاء الاصطناعي، وهو ما سيختلف من دولة لأخرى، وسيعزز من التفاوت الاجتماعي ويبرزه أكثر. وستكون الدول الأكثر فعالية هي التي تستطيع كسب الثقة والتوافق داخلياً على الخطوات الجماعية الكبيرة التي يتطلبها التكيف، وستحتاج الحكومات للاستفادة من خبرة وقدرات وعلاقات الفاعلين غير الحكوميين، ليكملوا الجهود الحكومية.

٢ – السيناريوهات الخمسة للعالم في ٢٠٤٠

يطرح التقرير خمسة سيناريوهات تجمع كل التفاصيل التي ناقشناها في مشهد واحد، ليحاول توضيح توابعها المحتملة وأثرها في شكل العالم. ثلاثة سيناريوهات من الخمسة، تصوّر العالم بقيادة إما الولايات المتحدة وإما الصين، وإما التنافس بينهما، ويتنبأ السيناريو هان الباقيان بتغيرات جذرية أكثر، تنتج من انقسام عالمي شديد.

السيناريو الأول – نهضة الديمقراطيات: في عام ٢٠٢٠، انتبه العالم لأهمية التعاون الدولي في الأبحاث العلمية، والابتكار، والتقدم التكنولوجي، في مواجهة التحديات العالمية، خاصةً مع نجاح تطوير لقاح «كوفيد-١٩» وتوزيعه. ويشهد العالم صعود ديمقراطيات منفتحة تقودها الولايات المتحدة وحلفاؤها، ويتغير شكل الاقتصاد العالمي نتيجة للتقدم التكنولوجي الذي ترعاه شراكة بين الحكومات والمؤسسات والشركات الخاصة، لترتفع الأجور وتحسن جودة حياة الملايين في أنحاء العالم.

ونتيجة لما سبق، ستتمكن الدول من الاستجابة للتحديات العالمية بشكل أفضل، وستخفُّ حدة الانقسامات الاجتماعية، وتتجدد الثقة في المؤسسات الديمقراطية بسبب المبادرات المستمرة للقضاء على الفساد وتعزيز الشفافية والمساءلة. سيسهم التطور التكنولوجي الذي حققته الديمقراطيات في جعل بعض الدول تتبنى أنظمة ديمقراطية أكثر شفافية. وستُظهر

القيادة الأميركية مركزيتها في عمليات التنسيق بين الدول لحل المشكلات العالمية، وسياساهم في تثبيت هذا النظام انتعاشُ دول الاتحاد الأوروبي وبريطانيا، بسبب النمو الاقتصادي والتقدم التكنولوجي. وسيسهم التطور التكنولوجي الذي حققته الديمقراطيات في جعل بعض الدول كثيفة السكان تتبنى أنظمة ديمقراطية أكثر شفافية، ومنها الهند والبرازيل وإندونيسيا ونيجيريا.

وعلى النقيض، سيتراجع الابتكار في روسيا والصين، بعد لجوء أبرز العلماء ورواد الأعمال الصينيين إلى دول الاتحاد الأوروبي وأميركا، بسبب المراقبة الجماعية والقيود الاجتماعية المتزايدة، وسيضعفُ النظام السلطوي في البلدين إثر تزايد القمع وتعطل النمو الاقتصادي وتزايد الضغوط الديموغرافية، وفي ظل ضعف النظامين، يُصبحان أكثر عدوانية تجاه جيرانهما.

ستُهدد روسيا بالتدخل لحماية الإثنيات الروسية في دول سوفياتية سابقة ليست عضوةً في حلف الناتو، وهذه ستكون محاولةً أخيرةً ويأساً لتثبيت الانتباه عن مشكلات موسكو الداخلية، بينما ستتحرك الصين بخطوات تصعيدية في بحر الصين الجنوبي، وستستثمر الدولتان في تكنولوجيا المعلومات المُضلة، وأسلحة الحرب غير المتكافئة، لمواجهة التفوق الأميركي العسكري، متفاديتين تكلفة العنف المباشر.

السيناريو الثاني - عالم تائه: ستفشل العديد من الدول المتقدمة والصاعدة في التعافي الكامل من آثار جائحة «كوفيد-19» التي سيطولُ عمرها بسبب التوزيع البطيء للقاحات، وسيزيد إحباط الشعوب في دول كثيرة، ورغم ذلك لن تستطيع حركات المعارضة المُنقسمة أن تتفق على مطالب وأهداف واضحة.

نعيش في عالم تائه بلا اتجاه، لا يتبع القواعد الدولية في سلوكه، ويقبل فيه التعاون الدولي، وتفشل التكنولوجيا في توفير الحلول، وتعاني دول منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية من تباطؤ النمو الاقتصادي، وزيادة الانقسامات الاجتماعية، والشلل السياسي.

وتتجه دول مثل اليابان وكوريا لتطوير برامج التحديث العسكري المستقلة والخاصة بها، وستعمل على تطوير أسلحة نووية لمجابهة كوريا الشمالية والصين، وسبب ذلك قلقهم مما إذا كان من الممكن الاعتماد فعلاً على حليفهم الأميركي. وستستغلُ الصين مشكلات الغرب لتوسع نفوذها، خاصةً في آسيا، ولكنها تفتقر للرغبة والقدرة العسكرية التي تجعلها تقود العالم، ومع ركود العديد من الاقتصادات النامية، سيتجه بعضها نحو الصين، وسيعاني العديد منها من فشل الدولة، خاصةً في الشرق الأوسط وأفريقيا.

السيناريو الثالث - تعايش وتنافس: بعد التعافي البطيء من أزمة «كوفيد-19»، وبعد الحرب

التجارية الممتدة بين أمريكا والصين، يصبح الطلب الاقتصادي مقيداً وينتشر الإحباط العام بنهاية العشرينيات، وتتخذ دول منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية - التي يعاد إحيائها - إجراءات اقتصادية جديدة لتحفيز النمو.

تجتمع دول السبع في كندا عام ٢٠٢١، لتقرّ خططاً لتحفيز الاقتصاد وتحرير التجارة والاستثمار، وتحسين نظم الضرائب، وتخفيف القيود التنظيمية، وتدعمها «روسيا ما بعد بوتين» التي عانت في سنوات انخفاض أسعار النفط، ومعها اقتصادات صاعدة مثل البرازيل والهند.

ولكن الصين لا تفتح على هذا النموذج الاقتصادي، وستلتزم بنظامها المغلق والموجه من الدولة، ولكنها ستجعل الأولوية للنمو الاقتصادي والتجارة. وستعمل الصين والولايات المتحدة على تقوية علاقاتهما الاقتصادية، ولكن ستنافسان على النفوذ السياسي والترويج لأنظمة حكمهما، وعلى الهيمنة والتفوق التكنولوجي والإستراتيجي، وبينما ينخفض خطر النزاعات بسبب الاعتماد الاقتصادي المتبادل بين البلدين، سيبقى التنافس الجيوسياسي هو التحدي الأمني الأهم.

السيناريو الرابع - صوامع منفصلة: في بداية الثلاثينيات، ستتجه الدول لزيادة الحواجز وفرض قيود تجارية بينها، لحماية سكانها ومواردها ولخدمة الصناعة المحلية، في ظل تراجع في الوظائف سببته جزئياً العولمة، وخلافات تجارية محتدة، وتهديدات «إرهابية» وصحية عابرة للحدود. وفي ٢٠٤٠، سينقسم العالم لتكتلات اقتصادية وأمنية متعددة، تختلف حجماً وقوة، وترتكز حول الصين وروسيا والاتحاد الأوروبي وأمريكا وبعض القوى الإقليمية مثل الهند، وتركز على الاكتفاء الذاتي والمرونة والدفاع العسكري. وستعاني بعض الدول النامية وسط هذه التكتلات، وستكون معرضة لخطر أن تصبح دولاً فاشلة، ولكن الدول ذات الأسواق المحلية الكبيرة، أو المجاورة لبلدان كبيرة، ستنجح في إعادة توجيه اقتصاداتها.

وتمتدُّ حالة الانغلاق وبناء الحواجز إلى الإنترنت؛ إذ ستبقى الولايات المتحدة وقلة من حلفائها هي الدول الوحيدة التي تحافظ على شكل الإنترنت المفتوح، وستعمل البلدان الباقية من خلف جدران نارية تتحكم فيه. وسيسبب الركود الاقتصادي اختلالاً أمنياً واسعاً في أفريقيا والشرق الأوسط وجنوب آسيا، وسيعزز العودة للهويات الإثنية والدينية الفرعية، ما سيُنهك المجتمعات وسيُقسم الدول وينشر الفوضى.

وستصبح الدول الفقيرة أقل استقراراً، خاصةً مع عدم اهتمام الدول الكبرى أو الأمم المتحدة باستعادة النظام، وستصبح النزاعات مستمرةً فيها، ومن ثم ستُفاقم وضع المشكلات الأخرى. وسيزيد المهاجرون الهاربون من الفقر والحكومات الضعيفة والظروف البيئية

المتدهورة، ولكن آمالهم ستتخطم بسبب منع الدول الآمنة لأغلب أنواع الهجرة. السيناريو الخامس - المآسي والتعبئة: في هذا السيناريو، سيقود العالم في ٢٠٤٠ تحالف عالمي تتزعمه دول الاتحاد الأوروبي والصين، ويتعاون مع المنظمات غير الحكومية والمؤسسات الدولية العائدة للحياة، لعمل تغييرات واسعة المدى لمجابهة التغير المناخي والفقر ونضوب الموارد، وذلك بعد وقوع كارثة غذائية سببها مناخي، بعد تدمير مصائد الأسماك وتراجع محاصيل الحبوب؛ ما سبب ارتفاع أسعار الغذاء وانتهى بمجاعة عالمية. وستواصل الأجيال الشابة التي عاشت جائحة كورونا معاً عبر الحدود، وسيلجأون للمنظمات غير الحكومية والمجتمع المدني بدلاً من الحكومات التي سترى شعوبها أنها خيبت آمالها. وتأتي المبادرة الدولية من الاتحاد الأوروبي، بعد نجاح الأحزاب الخضر في الفوز بالانتخابات في دول أوروبية عدة بين ٢٠٣٤ و٢٠٣٦، لتُطلق حملة داخل الأمم المتحدة لتوسيع برامج الإغاثة بشكل كبير، وتحديد موعد جديد لتحقيق أهداف الأمم المتحدة للتنمية المستدامة المقررة في ٢٠٥٠. وستعلن الصين دعمها للاتحاد الأوروبي بسبب تأثرها الشديد من المجاعة، بينما تلحق بها ببطء دول مثل أميركا وأستراليا بعد أن تحصل الأحزاب المهمة بالبيئة على سلطة سياسية أكبر.

هذه المبادرة الأوروبية، بالتعاون مع الدول المتقدمة التي ركزت على تحديات القرن العاشر للقوميات، ستُنشئ منظمة عالمية جديدة تسمى مجلس الأمن الإنساني، تسمح بعضوية الدول والجهات الفاعلة غير الحكومية، وتتطلب عضويتها التزاماً أكيداً بإجراءات تحسين الغذاء والصحة والأمن البيئي، حتى المُكلفة منها للدول والمجموعات الغنية. وسيُفصل أعضاء المنظمة غير الملتمزمين، ليواجهوا حركات شعبية مناهضة ودعوات للمقاطعة تشبه تلك التي قامت ضد الفصل العنصري في جنوب أفريقيا، وبحلول ٢٠٣٨، سيختلف السلوك العالمي تجاه البيئة والأمن البشري بعد الاعتراف المتزايد بفشل الإجراءات السابقة.

ولكن ستبقى بعض الدول معارضة لهذه الإجراءات، مثل روسيا وبعض دول «أوبك»، التي ترى فيها تهديداً لقيمها التقليدية، وستواجه الدول ذات المصالح القوية في قطاع الطاقة، مثل روسيا والسعودية وإيران ودول الخليج، حركاتٍ سياسية ضد النظام، وتُهدد بنزاعات اجتماعية وسياسية عميقة.

٣ - وجهات نظر مغايرة للطرح الإستخباري الأميركي

بعد استعراض السيناريوهات الخمسة وفق تقرير الإستخبارات الأميركية يبدو أن هناك من يتساءل ويحذر من تجربة الرئيس السابق دونالد ترامب؛ لا سيما سلوكه الذي شجع العرق الأبيض تحت ستار شعار «أميركا أولاً». فقد تركت مقالة لروبرت كاغان في صحيفة الواشنطن بوست في ٢٢ / ١٢ / ٢٠٢١ بعنوان «أزمتنا الدستورية هنا بالفعل» انطباعاً مميّزاً في المقياس

التاريخي بما يخالف التقرير المذكور، قال كاغان: «تتجه الولايات المتحدة إلى أكبر أزمة سياسية ودستورية منذ الحرب الأهلية، ولديها فرصة معقولة على مدى السنوات الثلاث إلى الأربع القادمة من حوادث العنف الجماعي، وانهيار السلطة الفيدرالية، وتقسيم البلاد إلى دول متحاربة. الجيوب الزرقاء. علامات التحذير قد تجلبها انحرافات السياسة والوباء والاقتصاد والأزمات العالمية والتمني والإنكار.

وكما كان الحال في كثير من الأحيان في البلدان الأخرى حيث ظهر قادة فاشيون، فإن خصومهم المحتملين مشلولون في الارتباك والذهول من هذا الاستبدادي الكاريزمي. لقد اتبعوا النموذج المعياري للاسترضاء، والذي يبدأ دائماً بالاستخفاف. ننسى أن الرئيس الألماني بول فون هيندنبورغ اعتقد أنه سيكون قادراً على السيطرة على أدولف هتلر بمجرد أن عينه مستشاراً في عام ١٩٣٣. ننسى أنه لم يكن هناك «مسيرة إلى روما» لقمصان موسوليني السوداء في عام ١٩٢٢: تجمع البلطجية خارج المدينة وكان من الممكن أن يوقفه الجيش. وصل الزعيم الفاشي إلى روما بالقطار ودعاه الملك فيكتور عمانويل الثالث لتشكيل حكومة. في وقت لاحق، تم إنشاء أسطورة مسيرة روما. إن قبول الديمقراطيات الليبرالية الغربية لإعادة تسليح ألمانيا معروف جداً لدرجة أنه لا يحتاج إلى التكرار، وقد حول إلى الأبد كلمة مفيدة بخلاف ذلك، وهي الاسترضاء، إلى مفهوم ساخر وكريه.

والملاحظ من التقرير الأميركي أن البون سيبقى شاسعاً بين دول الشمال الغنية ودول الجنوب الفقيرة، وفي مقاربة مغايرة لنتائج هذا التقرير، يتساءل روجيه غارودي «أن العالم اليوم يعاني ثلاث مشكلات مستعصية على الحل: مشكلة الجوع ومشكلة البطالة ومشكلة الهجرة. وما دام ثلاثة مليارات كائن بشري من خمسة مليارات مفلسة فهل يجوز الكلام عن سوق عالمية؟ أو عن سوق بين الغربيين تناسب حاجاتهم وثقافتهم وتصدّر الى العالم الثالث ما يفيض عنهم؟ هل يجب التسليم بفقدان التوازن هذا، والقبول بهذا الواقع الذي يولد صنوف الإستعباد والعنف والقوميّات والأصوليات، من دون أن نضع أسس الفوضى الحالية موضع المساءلة؟»

ويضيف المفكر الفرنسي غارودي «...وتُطلق «العولمة» لا على الحركة التي تُفضي إلى وحدة سيمفونية للعالم بمشاركة جميع الثقافات، بل على العكس، تفضي إلى انقسام متزايد بين الشمال والجنوب ناجم عن وحدة أمبراطورية مسوية، مدمّرة لتنوّع الحضارات وإسهاماتها، وذلك لفرض ثقافة الطامعين في السيطرة على كوكب الأرض... وبدلاً من اعتبار المنطق الإقتصادي الحالي، منطلق «ماستريخت» والنقد الموحد واقتصاد السوق، وكأنه القدر، يغدو المطلوب هو القطيعة مع هذا المنطق، أي الانتقال من منطق المضاربة إلى منطق الإنتاج والإبداع الإنسانيين على مستوى العالم الكلي، لا على مستوى أوروبا التي كانت استعمارية

بالأمس فاصبحت اليوم تابعة، لكنها مرابية أبداً باستغلالها لديون عالم جعلته متخلفاً لمصلحة تطورها ذاته وهو تطور فقد إنسانيته.

٤ - الفضاء حلبة الصراع المقبل بين أميركا والصين

يرتبط سباق الفضاء في الأذهان بالحرب الباردة بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي؛ إذ لا تستثمر الدول المليارات عادةً في مثل هذه المساعي إلا بهدف فرض السيطرة وتوسعة النفوذ، ومع تقدم الصين في ذلك المسعى بخطوات ثابتة بإطلاقها أول محطة فضاء دائمة منتصف العام ٢٠٢١، وبرنامجها الطموح لإرسال مركبات فضاء إلى الكواكب المجاورة، بالإضافة إلى برنامجها لاستكشاف القمر، كل ذلك علاوة على التوتر السياسي الحادث بينها وبين الولايات المتحدة مع إعلان الأولى رغبتها في «استرجاع» تايوان، يصبح الأمر معقداً للغاية بين القوتين العظميين في الفضاء كما هو على الأرض، ويجعلنا نتساءل: هل يقود ذلك سباق الفضاء هذا إلى خيرٍ للبشرية في النهاية؟
حسب الفيزيائي الأميركي الكبير .

مناظرة له تحت عنوان: «سباق الفضاء بين الولايات المتحدة والصين خير للبشرية»، فإن الإجابة هي «لا» قطعية؛ إذ يرى أن الفيزياء وعلوم الفضاء كما يمكن استخدامها في الخير، فإنه من الممكن أيضاً استخدامها في الحروب المدمرة بين القوى العظمى، وأن سباق الفضاء يمكنه أن يتحول بسرعة مذهلة، ومن دون أن ينتبه أحد، إلى سباق تسلح. يجادل د. كاكوبان سباق فضاء بين الولايات المتحدة والصين مثل الذي كان بين الأولى والاتحاد السوفياتي أواخر القرن الماضي لا مفر من أن يتحول إلى سباق تسلح، ما سيقود في النهاية إلى مواجهة نووية، ويكمل حديثه خلال المناظرة، بأن الولايات المتحدة والصين وروسيا تعمل على تطوير نظام جديد من الصواريخ تفوق سرعته سرعة الصوت بعشرين مرة، وذلك تحت مظلة استكشاف الفضاء الخارجي ودفع الحضارة إلى مستويات غير مسبوقة. لكن هذه الصواريخ أيضاً يمكنها أن تحمل رؤوساً نووية قادرة على تدمير العالم في دقائق، وهذه مخاطرة لا يستطيع العالم خوضها دون إقرار معاهدات ملزمة تحد من أي تهور يمكنه أن يقود إلى ما لا تحمد عقباه، وفي ظل التوترات السياسية بين القوى العظمى الرئيسة، تصبح الحاجة إلى تلك المعاهدات ملحة أكثر من أي وقت مضى. فهل يدخل الفضاء كحلبة صراع في تكوين النظام العالمي الجديد؟

في الخلاصة

لقد أشاد سعد محيو بكتاب توفيق البعيني ونيقولا فور، الذي حمل عنوان «شركات

متعددة الجنسيات أم منظمات مافيا - عالم الموز»، بالقول: ببساطة، إنه جاء في مرحلة هي العالم تحت السلطة المطلقة لمملكة «الرأسمالية النقية»، المتمثلة بالشركات العملاقة متعددة الجنسيات، والتي باتت تسيطر على كل مناحي الحياة البشرية: من الإقتصاد إلى السياسة، ومن الجامعات إلى مراكز البحوث (وبالتالي من الفكر إلى الثقافة)، ومن الإعلام إلى وسائل التواصل الإجماعي، والأهم من تقنيات الثورة التكنولوجية الثالثة إلى الثورة التكنولوجية الرابعة التي يتربع على عرشها الذكاء الإصطناعي. هي سلطة مطلقة تعج بجيوش جرارة من كل الأصناف، لم يشهد لها التاريخ بشطريه القديم والحديث مثلاً. ويضيف محيو «لا يصل الكاتبان إلى درجة الدعوة إلى إحلال عولمة إنسانية أو عولمة بديلة عن العولمة التكنورأسمالية، كما يطرح يساريو فرنسا والعالم، لكنهما يقتربان من ذلك حين يعلنان بكلمات مجلجلة: ما لم تدخل تغييرات عميقة على الأوضاع الراهنة، ستفرض على الإنسان لوحة مرعبة للعالم، عالم حيث الحياة كما نعرفها ستكون قصراً على حفنة قليلة تختارها الشركات متعددة الجنسيات، ويكون في تصرفها خدم بلا أمل ولا ذاكرة.... ولكن

١- إن ما جعل الولايات المتحدة قطباً عالمياً ليس السلاح الأميركي ولا وول ستريت فحسب، بل منتجات أخرى تعولمت مثل هوليوود، ومنابر الإعلام والفن، واللغة الإنكليزية، والانفتاح الأميركي على المهاجرين من أصحاب الكفاءات العلمية، ومنحهم الجنسية الأميركية، والجامعات العريقة ذات الإمكانيات الهائلة، بالإضافة إلى الديمقراطية والحرية الإعلامية، كلها عوامل لا تزال الصين مفتقرة لها.

٢- هل ثمة بعد، في عصر التكنولوجية الرابعة والعولمة التكنورأسمالية، مجال لنهوض الأمبراطوريات الجيو سياسية المتلبسة الرداء الروحي- الحضاري؟ صحيح أن النزاعات الجيو سياسية لا تزال تجري على قدم وساق في العالم، من أوكرانيا إلى الشرق الأوسط مروراً بمناطق آسيا/ الباسيفيك، لكن يبدو على نحو متزايد أن هذه الصراعات أشبه بحالة النزاع الأخير التي انتابت على مدار التاريخ البشري كل النظم العالمية السابقة. أجل، قد تكون أوكرانيا مهمة للغاية، تايوان مهمة للغاية، شرق المتوسط بغازه ونقطه وإرثه الحضاري مهم للغاية، لكن ما سيحسم طبيعة النظام العالمي الجديد، خاصة بين الصين وأميركا ليس كل هذه «العجقة» الجيو سياسية العارمة (والتقليدية) بل السباق على الذكاء العام الإصطناعي (GAI) والكومبيوتر الكمي، وآلات التعلم الذاتي، والبيولوجيا التركيبية، وباقي تركيبات الثورة الرابعة الإثني عشر.

٣- العالم الجديد الذي يتشكل الآن لا تحركه لا الجيو سياسة وليس الأيديولوجيات والفلسفات، ولا حتى الإقتصاد، بل التكنولوجيا وبشكل لم يسبق له مثيل في التاريخ. درة تاج

هذه التكنولوجيا سيكون الذكاء الإصطناعي الذي سيغير كل مناحي الحياة البشرية والتاريخ البشري والهوية البشرية برمتها. لا بل قد يحيل إلى رفوف التقاعد والنسيان كل الفلسفات التي صنعها عقل الإنسان من ٧ آلاف سنة، وي طرح مكانها رؤية جديدة للحقيقة والواقع، كان ك انط قد حسم أمرها حين قرر أن العقل الشري غير قادر على الإمساك بكنهها ولا بمعرفة «الشيء في ذاته». الذكاء الإصطناعي، ولأنه يمتلك منطقاً مغايراً للمنطق البشري، سيكون على الأرجح قادراً على ذلك.

يجب أن لا ننسى، أخيراً، أن هناك الآن بالفعل أمبراطورية عالمية هي التي تحكم سعيداً كل العالم سواء مباشرة أو بشكل غير مباشر، بما في ذلك أميركا وكل الغرب ومعه الصين واليابان والهند: إنها أمبراطورية العولمة التي أبدع تيغري ووهارت في تحديد طبيعتها وتركيبها قائلًا «من أراد تحدي هذه السلطة العارمة، التي تحوم كالشبح فوق العالم المادي وكالأخطبوط فوق العالم الافتراضي الناشئ، سيجد نفسه أشبه بفارس وحيد يحاصر قلعة محصنة، وبالطبع يجب عليه أن يدفع الثمن باهظاً تهميشاً وإقصاء وربما ما هو أكثر من ذلك.

المصادر

- خنفر وضاح - رئيس منتدى الشرق، مقالة بعنوان: النظام الدولي في عصر كورونا، نشرت بتاريخ ٢٤/٠٣/٢٠٢٠ على الرابط
HYPERLINK «<https://arabicpost.net/opinions/202>»
- خنفر وضاح - النظام الدولي في عصر «كورونا».
- أطلقت تسمية BRICS على اتحاد اقتصادي لمجموعة الدول التالية: برازيل روسيا الهند الصين وجنوب أفريقيا، ويتميز بأن جميع دوله من الدول الناشئة أو الصاعدة.
- أوهانلون مايكل، مرجع سابق.
- وضاح خنفر، مرجع سبق ذكره.
- أوهانلون، مرجع سابق.
- أوهانلون مايكل.
- المصدر نفسه.
- خنفر وضاح، مرجع سابق.
- جوزيف س. ناي Nye Joseph s. دكتور في جامعة هارفيرد - مقالة مترجمة،

نشرت على موقع ذي نيويوركركر، بتاريخ ٢٦ / ٣ / ٢٠٢٠ بعنوان: COVID-19's درس مؤلم
حول الإستراتيجية والسلطة

COVID-19'S PAINFUL LESSON ABOUT STRATEGY AND POWER

- خنفر وضاح، مرجع سابق.
- خنفر وضاح، مرجع سابق.
- «عام ٢٠٤٠ بعيون الاستخبارات الأميركية» - موقع sasapost نشر بتاريخ ٣٠
حزيران/ يونيو ٢٠٢١ على الرابط:

<https://sasapost.co/dni-global-trends-2040/>

- موقع sasapost بتاريخ ٣٠ حزيران/ يونيو ٢٠٢١.
- Robert Kagan's essay in The Washington Post this past week-
end titled « HYPERLINK «<https://www.washingtonpost.com/opinions/2021/09/23/robert-kagan-constitutional-crisis/>» t «__blank»
Our constitutional crisis is already here.» Sep 29, 2021

- غارودي روجيه، كيف نضع المستقبل، دار عطية للنشر، بيروت، الطبعة الأولى
١٩٩٨، ترجمة صيآح الجهيم: ص ١١ - ١٢.

- آدم محمد، جولة جديدة من الصراع البارد: ما الذي يعنيه سباق الفضاء بين أميركا
والصين؟ على موقع ساسة بوست تاريخ النشر ٦ ظ ٢٠٢٢.١ على الرابط:

<https://sasapost.co/usa-china-space-race/>

- محيو سعد، جريدة النهار - ٢ / ٢ / ٢٠٢٢ الكتاب بعنوان:
Toufic Bainy - Nicolas Faure. Multinational companies or Mafia
organisations. Towards a banana world.

مسؤولية الرئيس عن فعل المرسوم في القانون الجنائي الدولي

المقدم الدكتور محمد قمره

إلى جانب الإتفاقيات الدولية والأعراف المستقر عليها، يستند القانون الجنائي الدولي إلى جملة من المبادئ القانونية، بعضها يتم استنباطه من سياق النص القانوني كونها تعبر عن جوهر القانون، وبعض منها صيغ على نحو صريح في الإتفاقيات الدولية، وآخر انبثق من الأعراف الدولية.

يُقصد بالمبادئ العامة للقانون التي تشكل مصدراً من مصادر القانون الجنائي الدولي مجموعة القواعد المشتركة بين مختلف الأنظمة الجنائية الأساسية حول العالم التي تصلح للتطبيق داخل النظام الجنائي الدولي. ويقتضي ذلك توافق شرطين: من جهة، يجب إثبات أن هذا المبدأ يُعدّ مشتركاً بين غالبية الأنظمة الجنائية في العالم وليس بالضرورة جميعها. ومن جهة أخرى، ينبغي ألا يتعارض المبدأ مع طبيعة النظام الدولي الجنائي.

يستقر رأي الفقه حالياً على اعتبار المبادئ العامة للقانون مصدراً مستقلاً للقانون الدولي العام، تحتوي على قواعد مجردة وتستند إليها وتقرّها مختلف الأنظمة القانونية تبعاً لما بيّنته أحكام المادة (٣٨/١ ج) من النظام الأساسي لمحكمة العدل الدولية وكذلك المادة (٢١/١ ج) من النظام الأساسي لمحكمة الدولية الجنائية، التي تشير إلى «المبادئ العامة للقانون التي تستخلصها المحكمة من القوانين الوطنية للنظم القانونية في العالم... شريطة ألا تتعارض هذه المبادئ مع النظام الأساسي ولا مع القانون الدولي ولا مع القواعد والمعايير المعترف بها دولياً».

ومن بين أهم المبادئ العامة للقانون التي تشكّل مصدراً للقانون الجنائي الدولي، مبدأ المشروعية، مبدأ نسبية آثار الأحكام القضائية، مبدأ المساواة بين أطراف الدعوى القضائية، مبدأ احترام حقوق الدفاع، مبدأ قرينة البراءة، المساواة في الأسلحة، ومبدأ مسؤولية القادة أو مسؤولية الرئيس عن فعل المرؤوس الذي يقابله مبدأ القيادة المسؤولة المنصوص عليه في القانون الدولي الإنساني.

يمكن أن تنجم انتهاكات القانون الجنائي الدولي عن فعل أدّى إلى وقوعها، أو عن عدم فعل ما ينبغي فعله للحيلولة دون ارتكابها. وتوضع القوات أو الجماعات المسلحة بوجه عام تحت إمرة قيادة تتحمل المسؤولية عن سلوك مرؤوسها أو المؤتمرين بأمرها. ولا بد من محاسبة القادة والرؤساء في حال عدم قيامهم باتخاذ تدابير مناسبة لمنع مرؤوسهم أو المؤتمرين بأمرهم من ارتكاب انتهاكات خطيرة للقانون الدولي الإنساني كشرط لإحلال العدالة وجعل النظام القضائي فعالاً. ويجوز بالتالي تحميل القادة أو الرؤساء مسؤولية جنائية عن أنشطة إجرامية لم يساهموا فيها مساهمة شخصية.

سنحاول، في هذه الدراسة، الإضاءة على مبدأ مسؤولية القيادة وموقعه في القانون الجنائي الدولي من خلال استعراض ما نصّت عليه القواعد الإتفاقية الدولية والنظم الأساسية للمحاكم الجنائية الدولية بهذا الخصوص بدايةً، قبل أن نتناول ما آلت إليه الممارسة الدولية لناحية تكريس هذا المبدأ كقاعدة من قواعد القانون العرفي الدولي.

أولاً: نظام مسؤولية الرئيس في القواعد الإتفاقيّة الدوليّة والنظم الأساسيّة للمحاكم الجنائيّة الدوليّة

عام ١٨١٥، وبعد القبض على نابليون بوناپرت للمرة الثانية من قبل بروسيا وإنكلترا، نادت الأخيرة بعقابه وإعدامه رمياً بالرصاص، كما طالبت بشنقه، إلا أن عدم وجود محكمة جنائية دولية آنذاك، وعدم توفر قاعدة جنائية دولية تجرّم الإعتداء، أدّى إلى الإتفاق بين الحكومتين على نفي نابليون إلى جزيرة «سانت هيلين»، ووضعه في السجن وهذا ما تم فعلاً. وعليه، لم تتبلور في حينه تبعات انعقاد المسؤولية الجنائية الفردية ومسؤولية الرئيس عن أفعال مرؤوسيه.

عقب انتهاء الحرب العالمية الأولى، دعت لجنة المسؤولية وتحديد المتسببين في قيام الحرب عام ١٩١٩ إلى ضرورة محاسبة كل الأشخاص المتهمين بارتكاب جرائم العدوان وجرائم حرب وجرائم ضد السلام من دون النظر إلى مناصبهم أو رتبهم أو مواقعهم في السلطة بمن في ذلك القيصر الألماني، غير أن محاكمات ليبزغ التي تلت الحرب العالمية الأولى لم تشر إلى مبدأ مسؤولية القادة والرؤساء في أي من أحكامها.

ورد، بعد ذلك، المبدأ القائل بأن الأشخاص مسؤولون عن جرائم الحرب المرتكبة تبعاً لأوامرهم في اتفاقيات جنيف، واتفاقية لاهاي لحماية الممتلكات الثقافية وبروتوكولها الثاني، إذ يُطلب من الدول بموجب هذه الإتفاقيات، ألا تقاضي الأشخاص الذين يرتكبون انتهاكات جسيمة أو مخالفات فحسب، بل الأشخاص الذين يأمرهم بارتكابها أيضاً. كما وردت هذه القاعدة أيضاً في النظم الأساسيّة للمحكمة الجنائية الدولية، والمحكمة الجنائية الدولية ليوغوسلافيا السابقة، والمحكمة الجنائية الدولية لرواندا، والمحكمة الخاصة لسيراليون، وفي لائحة الإدارة الإنتقالية للأمم المتحدة في تيمور الشرقية رقم ١٥/٢٠٠٠، وجميعها تطبق على النزاعات المسلّحة الدولية وغير الدولية.

في المنحى عينه، شدّدت هيئات الأمم المتحدة، من مجلس الأمن، والجمعية العامة، والأمانة العامة، ولجنتي الخبراء اللتين أنشئتا تبعاً لقراري مجلس الأمن ٧٨٠ (١٩٩٢) و٩٣٥ (١٩٩٤)، على هذه القاعدة.

في النزاعات المسلّحة الدولية، تعتبر المسؤولية الجزائية للقادة عن جرائم الحرب المرتكبة من قبل مرؤوسيه، والقائمة على أساس تقصير القادة في اتخاذ التدابير لمنع أو معاقبة ارتكاب هذه الجرائم، قاعدة قديمة العهد. وعلى هذا الأساس، وجدت محاكمات عدّة جرت بعد الحرب العالمية الثانية عدداً من القادة مذنبين بسبب جرائم حرب ارتكبت من قبل مرؤوسيه.

ترد هذه القاعدة في البروتوكول الإضافي الأول الملحق باتفاقيات جنيف لعام ١٩٧٧، وفي الأنظمة الأساسيّة لعدد من المحاكم الجنائية الدولية. كما جرى التذكير بهذه القاعدة في قرارات بشأن النزاع في يوغوسلافيا السابقة، تم اعتمادها من قبل الجمعية العامة للأمم المتحدة، ولجنة حقوق الإنسان.

كما تشير الممارسة إلى أنّ من المسلّم به انطباق هذه القاعدة أيضاً على جرائم الحرب المرتكبة في النزاعات المسلّحة غير الدولية. وترد هذه القاعدة، وبشكل واضح، في سياق النزاعات المسلّحة غير الدولية، في النظم الأساسية للمحكمة الجنائية الدولية، وللمحكمتين الجنائيتين الدوليتين ليوغوسلافيا السابقة ورواندا، وللمحكمة الخاصة لسيراليون، وفي لائحة الإدارة الإنتقالية للأمم المتحدة في تيمور الشرقية رقم ١٥/٢٠٠٠.

في قضية هادجي هسنوفيتش وآخرين، رأت المحكمة الجنائية الدولية ليوغوسلافيا السابقة أنّ مبدأ مسؤولية القادة، كمبدأ في القانون الدولي العرفي، ينطبق في ما يتعلق بالنزاعات المسلّحة غير الدولية. وجرى التأكيد على هذه القاعدة في عدد من القضايا التي رفعت أمام المحكمة الجنائية الدولية لرواندا.

بالنسبة إلى مسؤولية القادة العسكريين، وتبعاً لما نصّت عليه الفقرة الأولى من المادة ٢٨ من نظام روما الأساسي، يكون القائد العسكري أو الشخص القائم فعلاً بأعمال القائد العسكري مسؤولاً مسؤولية جنائية، عن الجرائم التي تدخل في اختصاص المحكمة والمرتكبة من جانب قوات تخضع لإمرته وسيطرته الفعليتين، أو تخضع لسلطته وسيطرته الفعليتين، أو تخضع لسلطته وسيطرته الفعليتين حسب الحالة، نتيجة لعدم ممارسة القائد العسكري أو الشخص سيطرته على هذه القوات ممارسة سليمة:

- إذا كان ذلك القائد العسكري أو الشخص قد علم أو يفترض أن يكون قد علم بسبب الظروف السائدة، في ذلك الحين بأن القوات ترتكب أو تكون على وشك ارتكاب هذه الجرائم.

- إذا لم يتخذ القائد العسكري أو الشخص جميع التدابير اللازمة والمعقولة في حدود سلطته لمنع أو قمع ارتكاب هذه الجرائم، أو لعرض المسألة على السلطات المختصة للتحقيق والمقاضاة.

أضافت هذه المادة إلى قائمة الأشخاص المتهمين بارتكاب جرائم دولية فئة أخرى وهي فئة القادة والرؤساء الآخرين. فالقائد العسكري أو من يقوم مقامه مسؤول جنائياً عن الجرائم التي تدخل في اختصاص هذه المحكمة، وهي جرائم الحرب، وجرائم الإبادة، والجرائم ضد الإنسانية، وكذلك جرائم العدوان، متى وقعت وارتكبتها قوات خاضعة لإمرته وسيطرته الفعليتين، وذلك إذا ما توفر الشرطان المشار إليهما أعلاه.

في ما خصّ الأفعال التي تؤدي إلى قيام مسؤولية القائد أو الرئيس، تشمل هذه الأفعال الإخلال بالتزام القيام بعمل معيّن، حيث يكون سلوك القائد أو الرئيس سلبياً لعدم بذله الجهد اللازم، أو قيامه بما يلزم للحيلولة دون ارتكاب الجريمة من قبل مرؤوسيه. فالقانون الجنائي الدولي يفرض على القائد إمّا التدخل مباشرة لمنع ارتكابها، أو معاقبتهم في حال ارتكابها، أو التدخل المباشر لدى السلطات لاتخاذ إجراءات المتابعة. وتجدر الإشارة إلى أن الشروط المؤدية إلى قيام المسؤولية تختلف باختلاف

طبيعة دور القائد، فإن كان إيجابياً كالأمر أو التحريض على ارتكاب الجرائم كانت صفته كقائد أو رئيس كافية لقيام مسؤوليته الجنائية، أما إذا كان دوره سلبياً فيشترط إلى جانب صفته كقائد أو رئيس، ارتكاب المرؤوسين لإحدى الجرائم الداخلة في اختصاص المحكمة أو شروعهم فيها.

أما بالنسبة إلى مسؤولية القادة والرؤساء المدنيين، فقد نصت الفقرة الثانية من المادة ٢٨ في نظام روما الأساسي على التالي: «فيما يتصل بعلاقة الرئيس والمرؤوس غير الوارد وصفها في الفقرة السابقة من المادة، يُسأل الرئيس جنائياً عن الجرائم التي تدخل في اختصاص المحكمة، والمرتكبة من جانب مرؤوسين يخضعون لسلطته وسيطرته الفعليتين، نتيجة لعدم ممارسة سيطرته على هؤلاء المرؤوسين ممارسةً سليمةً:

- إذا كان الرئيس قد علم أو تجاهل عن وعي أية معلومات تبين بوضوح أن مرؤوسيه يرتكبون أو على وشك أن يرتكبوا هذه الجرائم.

- إذا تعلقت الجرائم بأنشطة تدرج في إطار المسؤولية والسيطرة الفعليتين للرئيس.
- إذا لم يتخذ الرئيس جميع التدابير اللازمة والمعقولة في حدود سلطته لمنع أو قمع ارتكاب هذه الجرائم، أو لعرض المسألة على السلطات المختصة للتحقيق والمقاضاة».

بذلك يكون القائد العسكري والرئيس الأعلى مسؤولين مسؤولية كاملة عن أعمال مرؤوسيهما عندما يتوفر لديهما العلم، أو أنهما قد تجاهلا بسوء نية المعلومات التي توضح أن الأشخاص الخاضعين لسلطتهم وسيطرتهم الفعلية يرتكبون، أو أنهم على وشك ارتكاب أي من الجرائم الداخلة في اختصاص المحكمة من دون اتخاذ الإجراءات الضرورية والملائمة لمنع ارتكاب هذه الجرائم أو محاكمة مرتكبيها.

وقد نص النظام الأساسي للمحكمة الجنائية الدولية الخاصة بيوغسلافيا السابقة، في مادته السابعة، على وقوع المسؤولية الجنائية الفردية شخصياً على كل من يقوم بالتخطيط لجريمة، أو التحريض عليها، أو الأمر بها، أو ارتكابها، أو المساعدة والتشجيع بأي شكل آخر على التخطيط أو الإعداد لها أو تنفيذها، وذلك بغض النظر عن المنصب الرسمي للمتهم، سواء كان رئيساً لدولة أم حكومة أو مسؤولاً حكومياً. ولا يعفي ارتكاب مرؤوس ما للجريمة رئيسه من المسؤولية الجنائية إذا كان هذا الرئيس:

- لديه سيطرة فعلية على مرؤوسه؛
- على علم، أو وجد من الأسباب ما من شأنه إحاطته علماً، أن ذلك المرؤوس كان على وشك ارتكاب هذه الأفعال أو أنه قد ارتكبها بالفعل؛
- ولم يتخذ التدابير الضرورية والمعقولة لمنع ارتكاب الجريمة أو معاقبة المرؤوس المرتكب للجريمة بعد ارتكابه لها.

أما المادة السادسة من النظام الأساسي للمحكمة الجنائية الدولية الخاصة برواندا، في فقرتها الثالثة، فقد أشارت إلى أن ارتكاب أي من الأفعال، التي تدخل صلاحية النظر بها ضمن اختصاص المحكمة، من قبل تابع أو مرؤوس، لا يعفي الرئيس من المسؤولية الجزائية الملقاة على عاتقه إذا علم، أو كان لديه من الأسباب التي تمكنه من أن يعلم، بأن المرؤوس كان على وشك ارتكاب هذه الأفعال أو قد ارتكبها فعلاً دون أن يتخذ التدابير اللازمة والمعقولة لمنع ارتكاب هذا الفعل أو لمعاقبة فاعليه.

ولا يمكن إعفاء مرتكب الجريمة من مسؤوليته الجنائية لكونه تصرف بناء على أوامر صادرة عن حكومة أو بأمر من رئيسه، إلا أنه يمكن اعتبار ذلك سبباً لتخفيف العقوبة إذا رأت المحكمة الخاصة في ذلك استيفاء لمقتضيات العدالة.

ثانياً: مسؤولية القيادة كقاعدة عرفية في القانون الدولي

أشارت القاعدة ١٥٢ من قواعد القانون الدولي الإنساني العرفي الواردة في الدراسة التي أعدتها اللجنة الدولية للصليب الأحمر عام ٢٠٠٥، إلى تكريس الدول لمبدأ مسؤولية القيادة من خلال الإعتقاد والممارسة حيث نصت على أن «القادة والأشخاص الآخرين الأرفع مقاماً مسؤولون جزائياً عن جرائم الحرب التي ترتكب بناءً على أوامهم»، كإحدى قواعد القانون الدولي العرفي المنطبقة في النزاعات المسلحة الدولية وغير الدولية.

في سياق متصل، من الأهمية بمكان الإضاءة على أن «مسؤولية القيادة عن التقصير في منع ارتكاب جرائم الحرب أو قمعها أو رفع التقارير عنها» قد ارتقت كذلك إلى منزلة القاعدة العرفية. وفي هذا الإطار، نصت القاعدة العرفية ١٥٣ من قواعد القانون الدولي الإنساني العرفية على ما يلي: «القادة والأشخاص الآخرون الأرفع مقاماً مسؤولون جزائياً عن جرائم الحرب التي يرتكبها مرؤوسوهم إذا عرفوا، أو كان بوسعهم معرفة أن مرؤوسيهم على وشك أن يرتكبوا، أو كانوا يقومون بارتكاب مثل هذه الجرائم، ولم يتخذوا كل التدابير اللازمة والمعقولة التي تخولها لهم سلطتهم لمنع ارتكابها أو لمعاقبة الأشخاص المسؤولين عنها إذا ارتكبت مثل هذه الجرائم».

وقد تكررست ممارسة الدول لهذه القاعدة كإحدى قواعد القانون الدولي العرفي المنطبقة في النزاعات المسلحة الدولية وغير الدولية.

يعكس الحديث عن مسؤولية الرئيس عن فعل المرؤوس في القانون الجنائي الدولي جملة عناوين يمكن أن تُفسّر من خلالها، يتم استنباطها من السوابق القضائية للمحاكم الجنائية الدولية. تشير هذه العناوين إلى مجموعة نقاط تشمل سلطة القيادة المدنية، علاقة القائد بالمرؤوس، علم القائد بارتكاب الفعل، التحقيق ورفع التقارير، والتدابير اللازمة والمعقولة، وذلك وفقاً لما تم ايضاحه في

تفسير القاعدة ١٥٣ من قواعد القانون الدولي الإنساني العرفي التي وردت في دراسة اللجنة الدولية للصليب الأحمر ذات الصلة.

سلطة القيادة المدنية

لا تقع مسؤولية جرائم الحرب على الأفراد العسكريين فحسب، بل تقع أيضاً على المدنيين على أساس مسؤولية القادة. وقد اعتمدت المحكمة الجنائية الدولية لرواندا هذا المبدأ في قضية أكاسو في العام ١٩٩٨، وفي قضية كاشيما وروزيندانا في العام ١٩٩٩، كما اعتمدته أيضاً المحكمة الجنائية الدولية ليوغوسلافيا السابقة في قضية ديلايتش في العام ١٩٩٨، كما يرد المبدأ كذلك في النظام الأساسي للمحكمة الجنائية الدولية. وتشير النظم الأساسية للمحكمتين الجنائيتين الدوليتين ليوغوسلافيا السابقة ورواندا، والمحكمة الخاصة لسيراليون، وبتعابير عامة، إلى «الأرفع مقاماً»، كما يفعل الكثير من الكتيبات العسكرية والتشريعات الوطنية.

علاقة القائد بالمرؤوس

لا تقتضي العلاقة بين القائد والمرؤوس أن تكون بالضرورة علاقة مباشرة بحكم القانون (de jure). وتكون مسؤولية القائد الفعلية (de facto) كافية لتسبب مسؤوليته. وقد أفر هذا المبدأ في أحكام كثيرة للمحكمتين الجنائيتين الدوليتين ليوغوسلافيا السابقة ورواندا. وحددت المحكمتان تولي السيطرة الفعلية على أفعال المرؤوسين من ناحية القدرة المادية على منع ارتكاب الجرائم والمعاقبة عليها كمعيار أساسي. وتنعكس الفكرة ذاتها في المادة ٢٨ من النظام الأساسي للمحكمة الجنائية الدولية.

إذا علم القائد أو الأرفع مقاماً، أو كان يُفترض أن يعلم

تؤكد الممارسة أن مسؤولية القادة لا تقتصر على الأوضاع التي يكون فيها القائد أو الأرفع مقاماً على علم فعلي بالجرائم المرتكبة، أو التي على وشك أن ترتكب من قبل مرؤوسيه، بل تعتبر المعرفة التقديرية كافية للمسؤولية. ويعبر عن هذه الفكرة بصيغ متقاربة بالنسبة إلى القائد أو الأرفع مقاماً تشمل الآتي: «يُفترض أن يعلم»، «كانت لديه معلومات تمكنه من الإستنتاج في تلك الظروف»، «يُفترض أن يكون القائد/الأرفع مقاماً قد علم بسبب الظروف السائدة في ذلك الحين»، «كان القائد/الأرفع مقاماً مسؤولاً عن تنصيره في الحصول على هذه المعلومات»، وكان القائد/الأرفع مقاماً «متهاوناً جزئياً في عدم معرفته». وتجدر الإشارة إلى أن هذه الصيغ تغطي، بشكل أساسي، مفهوم المعرفة التقديرية.

بالنسبة إلى من هم أرفع مقاماً من غير القادة العسكريين، يستخدم النظام الأساسي للمحكمة الجنائية الدولية صيغة إذا الرئيس «تجاهل عن وعي أي معلومات تبين بوضوح». وقد استخدم هذا المعيار

من قبل المحكمة الجنائية الدولية لرواندا في قضية كايشيما وروزنداندا في العام ١٩٩٩، لتوصيف معنى عبارة «يفترض أن يكون قد علم» بالنسبة للقادة من غير العسكريين.

التحقيق ورفع التقارير

يمكن أن ينجح عن التقصير في التحقيق في الجرائم المحتملة و/أو التقصير في رفع تقارير إلى السلطات الأعلى بالمزاعم بشأن جرائم حرب، تقصير في قمع المرؤوسين الذين يرتكبون جرائم حرب. ويرد هذا الأمر في البروتوكول الإضافي الأول الملحق باتفاقيات جنيف لعام ١٩٧٧ وفي النظام الأساسي للمحكمة الجنائية الدولية، بالنسبة إلى النزاعات المسلحة الدولية. وفي تقريرها الختامي بشأن الانتهاكات الجسيمة لاتفاقيات جنيف والانتهاكات الأخرى للقانون الدولي الإنساني المرتكبة في يوغوسلافيا السابقة، أكدت لجنة خبراء الأمم المتحدة التي أنشئت تبعاً لقرار مجلس الأمن ٧٨٠ (١٩٩٢)، على هذا المبدأ الأساسي بخصوص مسؤولية القيادة.

في حكمها في قضية بلاسكيتش في العام ٢٠٠٠، رأت المحكمة الجنائية الدولية ليوغوسلافيا السابقة أن على القائد أن يعطي الأولوية، حين يعلم أو يفترض أن يعلم أن مرؤوسيه على وشك ارتكاب جرائم، لمنع ارتكاب هذه الجرائم، وأنه «لا يستطيع أن يعوض عن التقصير في التصرف بمعاقبة المرؤوسين في ما بعد».

التدابير اللازمة والمعقولة

في قضية ديلايتش في العام ١٩٩٨، فسّرت المحكمة الجنائية الدولية ليوغوسلافيا السابقة عبارة «التدابير اللازمة والمعقولة» على أنها تقتصر على التدابير الممكنة ضمن سلطة الشخص، إذ لا يمكن إرغام أحد على القيام بما هو مستحيل. وفي ما يتعلق بالتدابير اللازمة والمعقولة لتأمين معاقبة المشتبه بهم كمجرمي حرب، قضت المحكمة في قضية كفوتشكا في العام ٢٠٠١، بأن ليس بالضرورة على الأرفع مقاماً أن يضع العقوبة موضع التنفيذ، بل «أن يتخذ خطوة هامة في عملية الإنضباط».

في حكمها في قضية بلاسكيتش في العام ٢٠٠٠، رأت المحكمة أن «القائد، وتحت وطأة ظروف معينة، يمكن أن يتحرر من واجبه بمنع أو قمع جريمة، وذلك برفع تقرير بالمسألة إلى السلطات المختصة».

في ما يتصل بالعلاقة بين الرئيس والمرؤوس بما يتعلق بجريمة الإرهاب، وفقاً للنظام الأساسي للمحكمة الخاصة بلبنان، أشارت المادة الثالثة من هذا النظام إلى تحمّل الرئيس المسؤولية الجنائية عن أي من الجرائم التي تدخل في اختصاص المحكمة، والتي يرتكبها مرؤوسون يخضعون لسلطته وسيطرته الفعليتين، نتيجة لعدم سيطرته سليمة على هؤلاء المرؤوسين، حيث:

- يكون الرئيس قد عرف أو تجاهل عن عمد أية معلومات تبين بوضوح أن مرؤوسيه يرتكبون أو هم

على وشك أن يرتكبوا تلك الجرائم؛

- تتعلق الجرائم بأنشطة تدرج في إطار المسؤولية والسيطرة الفعليتين للرئيس؛
- لم يتخذ الرئيس جميع التدابير اللازمة والمعقولة في حدود سلطته لمنع أو قمع ارتكاب مرؤوسيه لتلك الجرائم أو لعرض المسألة على السلطات المختصة للتحقيق والملاحقة القضائية.

ولا يُعفى مرتكب الجريمة من المسؤولية الجنائية لكونه تصرف بأمر من رئيسه، إلا أنه يجوز للمحكمة الخاصة أن تنظر في تخفيف العقوبة إذا رأت في ذلك استيفاء لمقتضيات العدالة.

تجدر الإشارة إلى أن تنفيذ أوامر الرؤساء خلال النزاعات المسلحة يخضع للقيود التي يفرضها احترام القانون الدولي الإنساني وعدم انتهاك قواعد، تبعاً لما جاءت به القاعدة ١٥٤ من قواعد القانون الدولي الإنساني العرفي المتعلقة بإطاعة الأوامر العليا للرؤساء، التي نصت على أنه «على كل مقاتل واجب ألا يطيع أمراً من الواضح أنه غير قانوني»، وقد كرّست ممارسة الدول هذه القاعدة كإحدى قواعد القانون الدولي العرفي المنطبقة على الأوامر المعطاة في النزاعات المسلحة الدولية وغير الدولية.

يتبين من هذه الممارسة، بالإضافة إلى حقيقة أن المرؤوس الذي يرتكب جريمة حرب تبعاً لأمر من الواضح أنه غير قانوني، لا يستطيع أن يستخدم هذا الأمر كدفاع، وبالتالي يبقى مذنباً لارتكاب تلك الجريمة، انطلاقاً من أن هناك واجباً في عدم إطاعة مثل هذا الأمر.

واستكمالاً لما جاءت به القاعدة السابقة، تناولت القاعدة العرفية ١٥٥ مسألة الدفع بحجية الأوامر العليا حيث لا تعفي المرؤوس من المسؤولية الجزائية إطاعة أوامر عليا إذا عرف المرؤوس أن الفعل المأمور به كان غير قانوني، أو كان بوسعه أن يعرف ذلك بسبب الطبيعة غير القانونية الواضحة للفعل المأمور به. وردت هذه القاعدة في ميثاق المحكمتين العسكريتين الدوليتين في نورمبرغ وطوكيو، وكذلك في النظم الأساسية للمحكمة الجنائية الدولية، والمحكمتين الجنائيتين الدوليتين ليوغوسلافيا السابقة ورواندا، والمحكمة الخاصة لسيراليون، وفي لائحة الإدارة الإنتقالية للأمم المتحدة في تيمور الشرقية رقم ١/٢٠٠٠.

تجدر الإشارة إلى وجود ممارسة واسعة مفادها أن إطاعة الأمر بارتكاب جريمة حرب يمكن أن يؤخذ بالحسبان في تخفيف العقوبة، إذا رأت المحكمة أن العدالة تقتضي ذلك.

خلاصة

مما لا ريب فيه أن مسؤولية الرئيس عن فعل المرؤوس باتت مبدأً راسخاً في القانون الجنائي الدولي يمكن من خلاله ملاحقة الكوادر العليا العسكرية والسياسية التي أعطت الأوامر بارتكاب جرائم دولية، على نحو مباشر أو غير مباشر، أو أهملت أو قصّرت في منع ارتكابها أو قمعها، أو الإفادة عن وقوعها أو قربه، في حال المعرفة أو إمكانية المعرفة، من دون التحرك لاتخاذ تدبير معقول في حدود صلاحيات

هذه القيادات يحول دون وقوعها، وذلك تبعاً لما استقرت عليه الممارسات الدولية ذات الصلة والإعتقاد الدولي حول رسوخ هذه الممارسات. ولكن تبقى الإشكالية الأهم في الخطوات اللاحقة المرتبطة بالإتهام والملاحقة والحصانة والإختصاص والتعاون والتسليم، وهي أمور بالغة الحساسية وغالباً ما تتسم بالتعقيد تبعاً لما أفرزته ممارسات المحاكم الجنائية الدولية في هذا الصدد.

الهوامش

- ١- الزمالي عامر، مدخل إلى القانون الدولي الإنساني، وحدة الطباعة والإنتاج في المعهد العربي لحقوق الإنسان، تونس، ١٩٩٧، ص ٢٧.
- ٢- المحكمة الجنائية الدولية ليوغسلافيا السابقة ICTY، قضية الإدعاء ضد «حجي حسنوفيتش» Hadzihasanović ورفاقه (القرار بشأن الاستئناف التمهيدي المعارض للإختصاص فيما يتعلق بمسؤولية القادة)، غرفة الاستئناف، الفقرات ١٤ - ١٨.
- ٣- القهوجي علي عبد القادر، القانون الدولي الجنائي: أهم الجرائم الدولية، المحاكم الدولية الجنائية، منشورات الحلبي الحقوقية، بيروت، ٢٠٠١، ص ١٦٨.
- ٤- المجلة الجزائرية للعلوم القانونية والإقتصادية والسياسية، الجزء ٣٩، رقم ٢٠٠١، ٢٠٠١، الجزائر، ص ٦٠.
- ٥- هنكرتس (جون ماري) ودوزوالد- بك (لويز)، القانون الدولي الإنساني العرفي، المجلد الثاني: القواعد، اللجنة الدولية للصليب الأحمر، القاهرة، ٢٠٠٧، القاعدة ١٥٢ العرفية.
- ٦- المرجع أعلاه، القاعدة ١٥٣ العرفية.
- ٧- بوشعالة محمد الأمين، المبادئ العامة للقانون الجنائي وفق نظام روما الأساسي للمحكمة الجنائية الدولية، جامعة محمد بو ضياف، المسيلة، الجزائر، ٢٠١٧، ص ٢٧.
- ٨- نبيل بن خديم، استيفاء حقوق الضحايا في القانون الدولي الجنائي، رسالة ماجستير، جامعة محمد خيضر، كلية الحقوق والعلوم السياسية، قسم الحقوق، باتنة، ٢٠١٢ - ٢٠١٣، ص ١٦٣.
- ٩- الفتلاوي سهيل حسين - عماد محمد ربيع، القانون الدولي الإنساني، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، الأردن، ٢٠٠٧، ص ٣٣١.
- ١٠- بوشعالة محمد الأمين، مرجع سابق، ص ٢٩.
- ١١- هنكرتس (جون ماري) ودوزوالد- بك (لويز)، مرجع سابق، القاعدة ١٥٣ العرفية.
- ١٢- المرجع السابق، القاعدة ١٥٤ العرفية.
- ١٣- المرجع نفسه، القاعدة ١٥٥ العرفية.

الصراع الدولي للسيطرة على بحر قزوين

الدكتور محمد قبيسي

يعدُّ بحر قزوين أضخم بحر مغلق على وجه الأرض (بطول ١٢٠٠ كم وعرض ٣٠٠ كم وعلى مستوى أكثر انخفاضاً من مستوى المحيط ب ٢٨ متراً)، وهو محاط بدول عدة هي: روسيا من الشمال والشمال الغربي، وأذربيجان من الغرب، وإيران من الجنوب، وتركمانستان وكازاخستان من الشرق، ويتصل ببحر آزوف عن طريق قناة مانيتش. والمدن التي تطل عليه هي: أستراخان في روسيا، وباكو عاصمة الجمهورية الأذرية، وأستارا وبندرأنزلي في إيران، وأكاتوفي كازاخستان، و تركمانباشي في جمهورية تركمانستان. وهذا ما يجعله محل تجاذب إلى حد الصراع بين هذه الدول الخمس، وتالياً بين دول أخرى، ولاسيما للحصول على مصادر النفط.

يعاني بحر قزوين من تقلص مساحته باستمرار بسبب التبخر وانخفاض كمية ماء الأنهار التي تصب فيه وأكبرها نهر الفولغا. ففي أقل من نصف قرن تقلصت مساحته من ٤٢٤,٣٠٠ إلى ٣٧١,٠٠٠ كيلومتر مربع حتى استقرت حالياً عند ٣٦٠,٠٠٠ كيلومتر مربع، ويصل متوسط عمقه إلى ١٨٤ متراً، أما أعمق نقطة فيه فتصل إلى ٩٨٠ متراً. وتقدر كمية مياهه ب ٧٦ ألف كيلومتر مكعب على وجه التقريب.

أنهار وجزر في بحر قزوين:

تصب في بحر قزوين أنهار عدة أهمها وأكبرها هو نهر الفولغا الذي يأتي من روسيا وهو المصدر الرئيسي لمياه البحر، ثم نهر تيريك القادم من روسيا أيضاً، ونهر أترك ونهر الأورال الذي يأتي من كازاخستان، ونهر كورا القادم من جمهورية أذربيجان، والنهر الأبيض أو سفيد رود كما يلفظ بالفارسية ويأتي من إيران. وتشكل مصبات هذه الأنهار المكان الطبيعي الذي يستخدمه سمك الكافيار لوضع بيوضه. ويشكل نهر الفولغا في روسيا والنهر الأبيض أو سفيد رود في إيران أهم نهريْن في هذا المجال وذلك لاتساعهما عند مصبهما في البحر.

ويوجد فيه عدد كبير من الجزر معظمها غير مأهول، أما الجزر المأهولة فمنها جزيرة بولا قرب الساحل الأذري وتحتوي على احتياطات كبيرة من النفط، وجزيرة بيرالهي والتي كانت من أوائل الأماكن التي اكتشف فيها النفط في أذربيجان وتحتزن الجزيرة احتياطات كبيرة، وجزيرة نارغين وهي أكبر جزيرة مقابل الساحل الأذري وتحتوي على أنواع كثيرة من الطيور. وتوجد جزيرة واحدة مقابل الساحل الإيراني تسمى أشورادة وتتبع محافظة كلستان.

الصراع للسيطرة على النفط

بكبسة صغيرة على مقبض أبيض لصمام ضخم، بدأ النفط، من أحد آخر احتياطات النفط العظيمة المعروفة، بالتدفق خارجاً من منطقة بحر قزوين، وماراً عبر الأراضي الروسية، تمهيداً لتصديره إلى الغرب، في هيئة جدول نحيل سوف يتحول في النهاية إلى نهر غزير يتدفق بالنفط الخام.

ومن المعلوم أن النفط الآذري تم نقله سابقاً، عبر خط لأنابيب من باكو عاصمة أذربيجان، إلى ميناء باتومي الجورجي على البحر الأسود. لكن ذلك الأنبوب تم إغلاقه في العام ١٩٣٢.

وزاد اكتشاف النفط في قزوين بكميات ضخمة، تتراوح بين ٢٠٠ بليون برميل و ٦٠٠ بليون متر مكعب من الغاز، من توتر الدول المطلة على البحر ودفع ببعضها إلى عقد اتفاقات ثنائية رفضتها إيران. واستدعت طهران القائم بأعمال أذربيجان للاحتجاج على خطط باكو للتقيب عن النفط، وجاء التحذير بعد مباشرة شركة البترول البريطانية نشاطها في المياه المتنازع عليها.

الدفعة الأولى من النفط الآذري الخام الذي استؤنف تصديره اشترتها شركة النفط الروسية العملاقة «لوكويل».

ولا بد من الإشارة إلى أن هذا التعجل في عملية تطوير النفط في منطقة بحر قزوين، والبدء بنقله وتسويقه، خطوة من شأنها إعادة تشكيل خريطة الجغرافية السياسية للمنطقة. وتمتلك جمهوريات أذربيجان وكزخستان وتركمانستان معظم حقوق النفط والغاز في بحر قزوين، لكنها مضطرة للتنافس مع روسيا التي لا تزال تعتبر المنطقة منطقة نفوذ خاصة بها.

أما الولايات المتحدة فقد سعت لتخفيف القبضة الروسية على المنطقة، عن طريق تشجيع إقامة خطوط متعددة لأنابيب النفطية الخارجة من بحر قزوين.

ولا بد من الإشارة إلى أن شركة يونوكال الأميركية للطاقة تمتلك الحصص الكبرى في تجمع دولي لغايته نقل الغاز من تركمانستان إلى باكستان عبر أفغانستان.

اليد التي كانت على المقبض الأبيض للصمام، هي يد «ناطق علييف» رئيس شركة الدولة للنفط في جمهورية أذربيجان. وتم ذلك في قرية شرفانوفكا الآذرية عند الحدود مع روسيا. وكان علييف بذلك يفتح خطأً لأنابيب النفط يمتد مئات الأميال من شمالي

غربي باكو على بحر قزوين إلى ميناء نوفروسيسك الروسي على البحر الأسود. وقال عليليف في احتفال التدشين إن بلاده، أي جمهورية آذربيجان، التي كانت في نطاق الكتلة السوفياتية سابقاً، تستأنف تصدير نفطها إلى الأسواق الغربية، للمرة الأولى منذ ٦٥ عاماً، وإن ذلك تم في أفضل طريقة ممكنة، ولتحقيق أكبر فائدة ممكنة، أي عبر الأنابيب. أسفرت التنقيبات عن وجود احتياطات استراتيجية ضخمة من النفط والغاز فاقت كل التصورات. فقزوين بحيرة من النفط والغاز، وأظهرت الاكتشافات وجود ثروات هائلة ستغيّر معالم المنطقة في حال أحسن استثمارها من جانب الدول الخمس الواقعة على هذا البحر وهي: روسيا، إيران، كازاخستان، تركمانستان، وآذربيجان. وأشارت العينات المستخرجة من البحر شهيّة شركات النفط، فاندفعت الدول الكبرى المالكة إلى المنطقة للتنافس على مصادر الطاقة في وقت اندفعت فيه الدول الخمس لفرض نفوذها على أكبر نسبة من مياه البحر.

من جانبها، لم تكن الولايات المتحدة بعيدة عن دائرة التنافس في آسيا الوسطى وحوض بحر قزوين، فهي، منذ عهد كلينتون، تراقب تطور الأوضاع، وتتجسّس الفرص للدخول على خط الصراع لعزل الصين عن الدائرة، والحدّ من استفادة روسيا من الثروة، وإثارة الخلافات بين الدول الخمس بغية تبرير وجودها العسكري من خلال صلتها بتركيا عبر الحلف الأطلسي (الناطو) وتأثير أنقرة في آذربيجان.

وحيث جاء بوش الإبن إلى إدارة البيت الأبيض اتضحت صورة الموقف الأميركي أكثر من السابق، واتخذت التحركات السياسية أبعاداً استراتيجية إقليمية تمثلت في الضغط على تركيا لإقناع باكو بإقامة قاعدة عسكرية في آذربيجان للوصول إلى بحر قزوين، الأمر الذي أثار مخاوف إيران لوجود خطة تعزلها وتمنعها من الشراكة في التنقيب والإنتاج، مضافاً إليها مخاوف روسية من أن تنقل أميركا قواتها إلى حدودها الجنوبية للضغط عليها من خلال دول آسيا الوسطى.

إذاً، كانت كل المواد الأولية القابلة للاحتراق متوفرة على طول خطوط خط الحرير القديم، وكان الكل يتخوف من إقدام «جهة ما» على إشعال «عود الثقاب» فيعطي المبررات الكافية للتدخل بذرائع مختلفة، وما هي أبرز المحطات التي أوصلت منطقة آسيا الوسطى إلى حافة الهاوية؟ هنا بعض يوميات لعلّها تلقي الضوء على خفايا الصراعات الدولية الكبرى.

يوميات.. الصراع

- إيران تبدأ التنقيب عن النفط والغاز في بحر قزوين، ويقدر احتياطه بنحو ١٥, ٥ بليون برميل من النفط ونحو ٨, ٣ تريليون متر مكعب من الغاز.
- عقدت قمة كازاخستان، وهي الخامسة لمنظمة التعاون الاقتصادي، وتضم الجمهوريات الآسيوية (السوفييتية سابقاً)، إضافة إلى إيران وتركيا وأفغانستان وباكستان. واتفق رؤساء الدول على تأسيس بنك للتجارة والتنمية وتطوير شبكة للمواصلات (طرق للسيارات، وسكة حديد، وخطوط جوية) تذكّر بطريق الحرير الذي يربط الصين شرقاً بأوروبا غرباً. وتبلغ نسبة مساهمة المنظمة في التجارة العالمية ٤, ١ في المائة، ويرجح أن ترتفع النسبة بعد استثمار ثروات بحر قزوين. ويذكر أن عدد سكان دول المنظمة الآسيوية يقارب ٣٠٠ مليون نسمة.
- دخلت أذربيجان مع إيران في مفاوضات حاسمة بشأن نفط قزوين وتصديره عبر أنابيب تمر في إيران. ويمكنها نقل ٦, ١ مليون برميل يومياً.
- أعلنت أذربيجان أنها ستطلب الانضمام إلى الحلف الأطلسي (الناطو) أو السماح بإقامة قاعدة أطلسية (أميركية أو تركية) في أراضيها، ما يعني عملياً امتداد الحلف إلى بحر قزوين، وبالتالي إعادة رسم الخريطة السياسية والتوازنات الاستراتيجية في المناطق المحيطة بالبحر من القوقاز إلى الشرق الأوسط.
- أعلنت أذربيجان عن عزمها إقامة قاعدة للحلف الأطلسي أثار مخاوف روسيا، التي ردت بتزويد حليفها أرمينيا بأسلحة حديثة وطوّرت برنامج تحديث السلاح الإيراني الصاروخي والنووي. وازدادت مخاوف روسيا من بدء خسارة مواقعها في آسيا الوسطى حين جدّت أذربيجان رغبتها في الانضمام إلى الحلف الأطلسي، ورفضت أوزبكستان تمديد عضويتها في «أسرة الدول المستقلة» التابعة للهيمنة الروسية (بعد تفكك الاتحاد السوفييتي).
- أعلنت إيران عدم قبولها الاتفاق الذي وقّعه تركمانستان مع «كونسورتيوم» للإشراف على مشروع بناء خط أنابيب بتكلفة ٥,٢ بليون دولار لنقل الغاز الطبيعي عبر بحر قزوين في اتجاه أوروبا وتركيا، وذكرت أنه يخالف المبادئ التي أعلنتها الدول المطلّة على بحر قزوين. ويذكر أن الولايات المتحدة عارضت بناء خط أنابيب يمر عبر إيران وأيدت خيارات أخرى، مثل إنشاء خط أنابيب أطول يمتد من باكو (عاصمة أذربيجان) إلى جيهان (على ساحل البحر المتوسط) في تركيا.

- باشرت كازاخستان التنقيب عن النفط. ويذكر أن أكثر من ١٢٠ شركة نفط تنافست لمد خط الأنابيب، وتضمّ كونسورتيوم للتنقيب شركات بريطانية وأوروبية شمالية.

- وقّعت روسيا وكازاخستان على اتفاق لتقاسم الاحتياط النفطي في شمالي بحر قزوين، وهو أمر أزعج إيران وتركمانستان وأرضى آذربيجان. ويذكر أن تركمانستان في نهاية ١٩٩٧ دشنت خط أنابيب ينقل الغاز التركماني من كوربيجي (تركمانستان) إلى كورد - كوي (شمالي شرقي إيران) بكلفة ١٩٥ مليون دولار. ويقدر الاحتياط النفطي في بحر قزوين بين ١٣ و١٥ بليون طن، وهو الثالث في العالم بعد سيبيريا ودول الخليج.

- اتفقت ثلاث دول (كازاخستان، آذربيجان، تركمانستان) على تقسيم بحر قزوين إلى قطاعات قومية، واعترضت إيران وروسيا على الأمر، وطالبتا بأن تتقاسم الدول الخمس كلها موارد البحر. إلا أن روسيا تراجعت عن موقفها وتفاهمت مع كازاخستان على تقسيم الجزء الشمالي من قزوين إلى قطاعين مستقلين: روسي وكازاخي. وردت إيران على التفاهمات الثنائية بفتح محادثات مع شركات بريطانية وفرنسية وإيطالية للتنقيب عن النفط والغاز في الجزء الإيراني من قزوين لمدة تستغرق ١٨ شهراً.

- عقدت تركمانستان وآذربيجان قمة لتسوية النزاع في شأن تقسيم حقول النفط والغاز في بحر قزوين، ووجهت الدعوة إلى وزير الطاقة الأميركي بيل ريتشاردسون وكبار مسؤولي شركات النفط لحضور لقاء تركمانبashi (ميناء في غربي تركمانستان).

- اتفقت آذربيجان وجورجيا على مشروع مد خط الأنابيب لنقل النفط من بحر قزوين إلى ميناء جيهان التركي.

- أعلنت كبرى شركات النفط الروسية (لوك أويل) أنها أنهت حفر أول بئر في إطار عمليات التنقيب في شمالي بحر قزوين. وقال بيان الشركة إن الاكتشاف يكتسب أهمية كبرى اقتصادية وجيو-سياسية. وأظهرت تقديرات الشركة وجود احتياطي يمكن أن يبلغ ٣٠٠ مليون طن (٣، ٢ بليون برميل). وتوقعت أن يبلغ الحد الأقصى للإنتاج السنوي ١٥ مليون طن في السنة الثامنة من تحقيق المشروع الذي يغطي مساحة ٨٥٠٠ كلم مربع تشمل ٢٢٠ بئراً. ويذكر أن شركة «لوك أويل» وقعت على حق استغلال النفط في كانون الأول (ديسمبر) ١٩٩٧.

- دعا الرئيس الروسي فلاديمير بوتين إلى تحرك في حوض بحر قزوين لمواجهة النشاط المتزايد للولايات المتحدة ودول أخرى في هذه المنطقة. وجاءت الدعوة في اجتماع لمجلس

الأمن القومي الروسي الذي وافق على «العقيدة العسكرية» لبوتين، وطالب بتصحيح الأوضاع لمنع تحويل بحر قزوين إلى منطقة نزاعات أخرى.

- أعلنت واشنطن رفضها التعاون مع إيران في المجال النفطي، وجددت دعمها لمشروع خط أنابيب باكو - جيهان من قزوين إلى تركيا المقرر أن يبدأ تشغيله في عام ٢٠٠٤. وردت طهران بأنها ستبدأ حفر آبار في بحر قزوين خلال شهور بالتعاون مع روسيا وأربع جمهوريات آسيوية.

- تهاجمت أذربيجان وجورجيا وتركيا على توقيع خط باكو - تبليسي - جيهان، بإشراف الولايات المتحدة وبريطانيا والنرويج واليابان ووسط مخاوف روسية وانزعاج موسكو من احتمال عزلها عن الاستثمارات النفطية في المنطقة.

- حذرت إيران من أخطار الوجود العسكري الأميركي - الإسرائيلي في بحر قزوين، ودعا وزير دفاعها علي شمخاني إلى تطوير شبكة صواريخ من طراز أرض - بحر. ويذكر أن البرنامج الصاروخي الإيراني تطور في السنوات العشر الأخيرة وأثار مخاوف إسرائيلية، مدعومة بتصريحات أميركية، من إمكان تعديل طهران موازين القوى العسكرية في المنطقة. وقد حذرت وزارة النفط الإيرانية شركات النفط الأجنبية من العمل مع دول أخرى.

- اتهمت أذربيجان إيران باختراق مجالها الجوي، وذكرت باكو أن طائرة إيرانية حلقت فوق مياهها الإقليمية. وجاء الاتهام على خلفية قيام قطعة من الأسطول الحربي الإيراني بمصادرة سفينتين أذربيجانيتين، استأجرتهما شركة النفط البريطانية.

إن هذا التدفق المبكر للنفط الخام (نحو ١٥٠ ألف طن حتى نهاية العام) ليس سوى بداية لعملية نقل قد تحمل في النهاية ملايين البراميل يومياً من قزوين، بما ينافس منطقة الشرق الأوسط كمصدر للطاقة إلى العالم. وبينما كانت شركات الطاقة وبلدان البحر تعمل على قدم وساق منذ أعوام عدة من أجل استخراج النفط، كانت مسألة الأنابيب اللازمة لنقله من "عنق الزجاجة" في العملية كلها.

يذكر أن الأنابيب تمر عبر الشيشان التي دمرتها الحرب من أجل الاستقلال، وهي توصلت مع روسيا منذ عهد قريب إلى اتفاقية لإصلاح وصلة الأنابيب بطول ١٥٠ كيلومتراً داخل أراضيها. أما الجانب الآذري من الأنابيب فقد تم إنجازه قبل سبعة أشهر تقريباً.

لا بد من الإشارة أخيراً إلى أن هذا التعجل في عملية تطوير النفط في منطقة بحر قزوين، والبدء بنقله وتسويقه، خطوة من شأنها إعادة تشكيل خريطة الجغرافية السياسية للمنطقة.

المصادر:

- ١- درويش فوزي: بحر قزوين والواقع الدولي، مركز الدراسات الآسيوية، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية (القاهرة)، ٢٠٠٧.
- ٢- صافيناز محمد أحمد: ثروات بحر قزوين، مجلة "السياسة الدولية"، ٢٠٠٥.
- ٣- علي أحمد: التنافس الدولي على بحر قزوين، مجلة "الدفاع الوطن اللبناني"، ٢٠٠٤.
- ٤- النعيمي ناصر: نفط بحر قزوين والصراعات الدولية الإقليمية، ٢٠٠٤.
- ٥- طاهر أحمد: استقلال ثروات بحر قزوين، ٢٠١٠.
- ٦- علو أحمد: بحر قزوين، مجلة "الجيش اللبناني"، العدد ٧٧٧، بيروت، ٢٠١٠.
- ٧- هاشم نوار خليل: الممرات المائية دراسة في الجغرافية السياسية، ٢٠١١.
- ٨- محمود ابراهيم ايمان: الصراع الإقليمي والدولي حول ثروات منطقة بحر قزوين، ٢٠٠٤.
- ٩- تابت أحمد: الاقتصاد السياسي للصراع حول آسيا الوسطى، ٢٠٠٢.
- ١٠- عثمان السيد عوض: إيران وتقاسم ثروات بحر قزوين، ٢٠٠٢.
- ١١- دياب محمود سعد: قمة بحر قزوين تحالف روسي - إيراني، ٢٠١٨.

الصحافة ونشأتها وشخصية الصحفي

الدكتور فؤاد الحركة

المقدمة

تتناول هذه الدراسة بالعرض والتحليل ظاهرة من أبرز ظواهر الحياة الحديثة المتحضرة، فهي ترصد نشأة الصحافة في لبنان والوطن العربي، مُدْكَانَةً ولبداً يحبو ويتعثر حتى أصبحت كياناً ناضجاً يمارس مهمته بدقة متناهية.

وصحافة اليوم أحوج ما تكون لأن تُدرَس دراسة عميقة في الأصقاع العربية - نقول في الأصقاع العربية، تخصيصاً للعمل، وتعميقاً للدراسة - وأن تدرس دراسة تحليلية معتمدة على نصوصها الذاتية، مع دراسة الإطار الاجتماعي والسياسي لها، ومراعاة تأثيرها وتأثرها، لا سيما في ظل ظروف المجتمع العربي الراهن حيث تمثل فيه الصحافة مكان الصدارة أثراً وفعاليتة.

إن الصحافة التي تتعامل مع جمهور يعيش في عالم سريع الحركة، متشابك الأبعاد، بالغ التنوع والتعقيد، تقرب فيه الأبعاد وتنعدم المسافات، ويصبح الوقت فيه مختزلاً، ويتطلب فهم الواقع وتتبعه نظرة علمية إلى الأمور.

والصحافة تتطلب أساليب في عرض الأحداث وتحليلها بما يتناسب والسماة العصرية للحياة، وهذه الأساليب تقتضي الوضوح والاقتضاب والدقة والتشويق في الصياغة.

ولبلورة الفكرة أذكر ما ذهب إليه عميد الصحافة الإنكليزية ويكهام ستيد في قوله: «ليست الصحافة حرفة كسائر الحرف، إنها أكثر من مهنة، وهي غير صناعة. وهي طبيعة من طبائع الموهبة، وهي شيء بين الفن والعبادة، والصحافيون خدم عموميون غير رسميين، غرضهم الأول العمل على رقي المجتمع».

يدور البحث حول الأطر الاجتماعية ومولد الصحافة العربية في هذه المرحلة، أي منذ ظهور صحافة الرأي في مصر التي عمقت مفاهيم البحث والكتابة والقدرة على التعبير الحر.

ولا بد لكي تكون صورة المجتمع واضحة من خلال الصحافة، لاعتبارها المجال الحيوي للنهضة الفكرية والأدبية التي عمت الشرق العربي في مطلع القرن التاسع عشر، والتي انبعثت إثر وقوع أحداث جسيمة ومهمة في الوطن العربي هزته وجعلته يستيقظ من سباته العميق. ولكي تكتمل الصورة لا بد من إلقاء نظرة موجزة على أطراف النزاع في المنطقة.

فرنسا⁽¹⁾: جربت فرنسا حظها بإيفاد الحملة التي قادها نابليون بونابرت، كأول حملة استعمارية في العصر الحديث، وقد حاولت أن تسيطر لإقامة إمبراطورية فرنسية على أرض مصر وبلاد الشام، ولكنها فشلت. ومن مصر اتجه بونابرت بحملته نحو فلسطين حتى بلغ أسوار عكا. وبالرغم من الأهداف السياسية للحملة، فإنها كانت ترمي إلى توطيد العلاقة

بين الشرق والغرب في الثقافة والتربية والإعلام.
الدولة العثمانية: انتشرت في المنطقة العربية برمتها، فكانت تتحكم كيفما تشاء في
المنطقة وتضع الأنظمة، وتصدر الفرمانات، وتشدد على حرية الصحافة وتقيدها عن
طريق إصدار القوانين الشديدة والصارمة.

الصحافة ونشأتها

قبل أن أدخل في الكتابة أو الحديث عن الصحافة لا بد من الوقوف على كلمة «صحافة»
لتحليلها وتوضيحها مبنى ومعنى.
فالصحافة لغة مشتقة من الصحف: جمع صحيفة.
والصحيفة: كما شرحها ابن منظور في «لسان العرب» هي التي يكتب فيها.
لقد حسم الخلاف (المعجم الوسيط) الصادر عن مجمع اللغة العربية في القاهرة
فأوضح هذه الكلمة حيث جاء فيه: الشائع الآن استخدام كلمة «الصحافة» للدلالة على
معنيين:

المعنى الأول: يقابل كلمة (جورناليزم) أي المهنة الصحفية.
المعنى الثاني: يقابل كلمة «برس Presse» أي مجموع الصحف.
فقد سمي العرب في أول الدعوة وثيقتهم التي نصوا فيها على مقاطعة النبي ρ ومن
اتبعه (صحيفة) وعلقوها على جدار الكعبة ليعلم ما فيها جميع القوم، وقد وردت في القرآن
الكريم دالة على ما كان ينزل على النبيين والمرسلين من أخبار الأمم والشرائع والنظم
الساوية.
وفي القرآن الكريم آية تنص: «... إن هذا لفي الصحف الأولى، صحف إبراهيم وموسى»
والصحف هنا بمعنى الكتب المنزلة^(٢).
وفي الصحاح للجوهري، جمعت الصحيفة على «صحف» و«صحائف» أي الكتاب بمعنى
الرسالة.

وهنا نتساءل ما هي الصحافة؟

لقد أطلق الإنكلسون في القرن التاسع عشر على الصحافة لقب (صاحبة الجلالة)
و(السلطة الرابعة) بعد السلطات الثلاث في الدولة (السلطة التشريعية والتنفيذية
والقضائية). ثم شاع في العالم الغربي شعار: «لكل شعب صحافته التي يستحق، فالصحافة
تصنع الشعوب. وكيف لا؟ والصحافة هي الأساس الذي يسهم في صناعة الحرف والكلمة

الأنيقة.

وعندما عرف العرب الصحافة في مطلع القرن التاسع عشر كانوا يطلقون عليها لفظة «الوقائع» وبقيت هكذا إلى أن أسس خليل الخوري عام ١٨٥٨ صحيفة «حديقة الأخبار» وهي أول صحيفة عربية أطلق عليها المعنى الفرنسي «جورنال» هذه الكلمة المعربة التي ما زالت تستعمل حتى يومنا هذا.

ومن المعروف أن كلمة صحافة وصلتنا على يد الشيخ نجيب الحداد الذي أنشأ صحيفة (لسان العرب) في الإسكندرية، وهو أول من استعمل لفظة الصحافة.

وتختلف التعاريف باختلاف وجهات النظر، فالصحافة بالنسبة إلى الساخر المتهكم هي مجرد تجارة، بينما هي متألفة في نظر الإنسان المتعلم والمثالي.

يقول «أريك هودجنز» إن الصحافة هي نقل المعلومات من هنا إلى هناك بدقة وسرعة، وبطريقة تخدم الحقيقة، وتجعل الصواب في الأمر يبرز ببطء حتى لو لم يبرز فوراً.

وأما الصحيفة فقد عرفها بعضهم بأنها «كل نشرة مطبوعة تشتمل على أخبار ومعارف عامة وتتضمن سير الحوادث والانتقادات التي تعبر عن مشاعر الجماهير، وتعد للبيع في أوقات ومواعيد دورية، وتعرض على الجماهير لافتنائها عن طريق الشراء أو الإشتراك».

والصحيفة هي عمل اجتماعي، تفرضه حاجات المجتمع، وهي ضرورة حياتية مهمة للمجتمع والبيئة التي يعيش فيها الإنسان.

التعريف العام للصحافة:

هي الرقيب والحسيب الذي لا يهدأ، فهي بوق النقد السليم، الواضح البناء والدليل الذي يكشف الطريق أمام الناس لقيام المجتمع الراقي المتطور. مجتمع الكفاية والعدل وتحقيق الإصلاح في شتى مرافق الدولة. ويمكن أن تنقلب الصحافة إلى أداة تخريب وتضليل وإفساد إذا أسيء استخدام هذه المهنة وأصبحت وسيلة من وسائل الكسب، أو أداة طيعة في يد الغير تحركها أجهزة خارجية غريبة.

وعلى ضوء ما تقدم، يمكننا أن نستشهد بقول للرئيس الأميركي جيفرسون «الصحافة هي خير أداة لتتوير عقل الإنسان وتقدمه ككائن عاقل أخلاقي واجتماعي».

وإذا لم يكن هناك صحافة قوية تصبح الشجاعة الأدبية أمراً نادر الوجود، وتصبح في حكم المستحيل، شأنها في ذلك شأن الشجاعة الحربية. فالجندي لا يندفع إلى المعارك ولا يقدم إلى المهالك إلا عندما يسمع صوت الطبول وزمجرة الدبابات ورائحة البارود.

والصحيفة للفرد الذي يعيش في المجتمع، غذاء للروح والجسد، تؤثر في حياته وأعماله

وتغدي شعوره، وتتمي تفكيره، وهي بمثابة المرآة العاكسة لآمال وآلام الأمة، ولسانها الناطق والمترجم لأفكارها وآرائها ورغباتها.

الصحافة والرأي العام:

لقد اختلف المفكرون في تحديد وتعريف الرأي العام. فالرأي العام كلمة مطلقة تشمل (القائد) من الجمهور، والقارئ (المتقف)، والمنساق (المنقاد). والصحافة تعنى بالعموميات. غير أن إتصالها بالرأي العام (القارئ) يكاد يغلب عنايتها بالعنصرين الآخرين، لأن عنصر الوسط يشعر بالرغبة في استكمال معلوماته من ناحية، واللهفة والتعطش للإلمام بما يدور حوله من ناحية أخرى. بينما نرى النابهين من الجمهور قلائل وهم يؤثرون في الصحف أكثر مما تؤثر فيهم. أما العنصر الثالث، المنساق والذي يمثل الأكثرية، فقد لازمه هذا الوصف بسبب ضعف إدراكه وثقافته، وهو دائم الإنقياد من قبل الغير.

الصحافة والدولة:

الدولة أياً يكن نظامها السياسي أو الاجتماعي تنزع إلى التسلط والاستئثار، فصراع الصحافة مع الدولة مستمر منذ وجدت الصحافة، وإلى ما شاء الله. والصحافة بحكم طبيعتها ورسالتها تريد الحرية والصراحة والإنعتاد، بينما الدولة بحكم مسؤولياتها تحرص على فرض رقابتها وسلطانها. لذا اتسمت العلاقة بين الصحافة والدولة بالتوتر والحذر. وكثيراً ما كان يؤدي بالصحافي إلى السجن أو التعذيب، أو الخطف أو القتل بسبب خبر صريح يكشف فيه خفايا الأمور وعيوب السلطة، أو مقال ينتقد فيه الحكام الذي لا يعملون إلا لمصالحهم الخاصة ضاربين عرض الحائط بكل ما يمت بصلة لخدمة المواطن وتطوير البلاد. وقد كان للصحافة في لبنان صراعٌ طويلٌ ومبريرٌ مع الدولة وأجهزتها المخابراتية والأمنية. وهكذا فرضت القيود على العمل الصحفي، ولكنها كانت تمارسها وتفرضها على نفسها. فإذا بالصحافة تتطور وتتقدم لتصبح صحافة الكثرة التي تصنع الكلمة الحرة، وتكتسب القوة والنفوذ وتحتل مكانة السلطة الرابعة في الدولة، وإذا بالدولة تتقلب إلى صديقٍ يعتمد عليها عند اشتداد الأزمات والمخاطر. إن تحطيم الصحافة للقيود والقرارات التعسفية واقع يدل على رقي المجتمعات وضمأن سلامتها. فالصحافة الحرة لا يمكن تصورها بوقاً لستر فضائح الإستبداد والإشادة بتصرفات الحكام، والصحفي الناجح الشريف يؤثر الإختفاء على أضواء الصحافة

ومباهجها ويرفض أن يكون مطية لمتنفذ، أو أمير من أمراء السياسة والإقطاع، ويستثنى من ذلك أيام الحروب حيث تصبح الرقابة ضرورية فيها، ويصير للقيادة العسكرية الحق في الإشراف الفعلي والعملي على أعمال الصحف، فيعدل الرقيب العسكري ويغير حسب مصلحة البلاد وضرورات الأمن وسلامة الوطن. ومعن هذا فإننا لا نستطيع أن ننفي وجود بعض المفارقات في الحريات الصحفية بالنسبة لاختلاف الدول وأنواع الحكم فيها. بحيث نرى حرية الصحافة تبدو واضحة في دولة ما، بينما يخنتق صوتها في دولة أخرى. والصحفي الناجح يكون كذلك بالمعلومات الدقيقة التي يستقيها من مصادرها، تلك المعلومات الصادقة المتجددة، السهلة التداول والاستخدام التي يزود بها صحيفته، لأنه يدرك قيمة الصحافة وأثرها البعيد في خلق المواطن والأمة، فيحافظ طيلة حياته على مبادئها ويخلص لأهدافها، ويحترم سلطانها في نفسه، فلا يتزلف ولا يمدح أو يذم إلا بالحق أو بما عليه الضمير المهني والخلق الكريم.

وللصحافة حق الكتابة في الموضوعات المختلفة، والاعتماد على الجدل المقنع، والابتعاد عن سواه من مظاهر القهر والقذف والإخلال بالآداب العامة، أو غير ذلك من الجرائم التي ترتكب عن طريق النشر، حيث لا يمكن أبداً أن نوافق على نشر آراء تثير الأفراد ضد الدولة التي تدير مرافق البلاد بكل أمانة وإخلاص.

إن الصحفي الناجح يدرك قيمة الصحافة وأثرها البعيد في خلق الأمة وتكوين المثل، فيحافظ طيلة حياته على مبادئها، ويخلص لأهدافها، ويحترم سلطانها، فلا يتزلف لمخلوق أياً يكن، ولا يذم ولا يمدح إلا بالحق.

أما الصحفي غير المؤهل مهنيًا، فلا يستطيع أن يعرف بقضايا وطنه وأمته، والصحفي الذي لا يتمتع بحرية التعبير لا يستطيع أن يدافع عن حقوقه وحقوق أمته أو يشارك في صنع القرار.

ماهية الصحافة:

قد يصعب إيمان وضع تعريف واضح وصريح للصحافة، نظراً لما هي عليه من إتساع وشمول وتشعب، حيث باتت متعددة الأشكال ومختلفة التعاريف، ومن هذه التعاريف: التعريف الإصطلاحي، والتعريف المادي، والتعريف العام.

التعريف الإصطلاحي: يمكن تسمية الصحافة هنا بالكتاب السيار (الدوار) الذي تدون فيه الوقائع بدقة وانتظام، ثم يعرض للقارئ بإيجاز ودقة. وقد عرّف بعضهم الصحيفة بأنها «كل نشرة تشتمل على أخبار وحوادث عامة وأبحاث سياسية واقتصادية تعد للبيع في فترات

ومواعيد دورية ثابتة».

وقد عرّف الدكتور محمد عزمي الصحافة بقوله: «إنها وظيفة اجتماعية غايتها توجيه الرأي العام عن طريق نشر المعلومات والأفكار الخيرة الناضجة التي تتناسب متسللة إلى مشاعر القراء من خلال صحف دورية».

أما عميد الصحافة الإنكليزية ويكهام ستيد، فيعرف الصحافة بقوله: «ليست الصحافة حرفة كسائر الحرف، بل هي أكثر من مهنة، وهي ليست صناعة، بل طبيعة من طبائع الموهبة إنها شيء بين الفن والعبادة. والصحافيون خدم عموميون غير رسميين، هدفهم الأول والأخير العمل على رقي المجتمع».

التعريف المادي: إن مهنة (حرفة) الصحافة بمدلولها المادي، تعني صناعة نشر الصحف الدورية، والكتابة فيها، وهي كسائر الصناعات تتكون من مراكز (مصانع) للإنتاج، وتحتاج إلى المواد الضرورية كالورق والحبر والإعلان والأحرف إلى ما هنالك من المعدات والأجهزة وآلات الطباعة، إضافة إلى رجال الإدارة والتحرير والعمال. والصحافة هي صناعة الكلمة، حيث الخلق والإبداع، وآلات الطباعة بالنسبة إليها كمعامل الغزل والنسيج بالنسبة للخيوط والألبسة.

نشأة الصحافة في لبنان:

لا شك بأن اللبناني يمتاز عن غيره من الشعوب العربية في أكثر المجالات وأهمها: كالأدب والصحافة والسفر والتجارة، فهو أول من ركب البحار، وقايض وتاجر وبنى السفن الحربية والتجارية.

واللبناني الذي اكتشف الصباغ الأرجواني على الساحل، هو أول من أوجد أبجدية الحرف، قد ثبت أنه لا يستطيع أن يتقدم عليه أحد في مجالات العلم والمعرفة. لذا نراه أول من أسس الصحف والمجلات في لبنان والعالم العربي، رغم كل العقبات والظروف القاسية التي عصفت في البلاد من جراء السيطرة الأجنبية والإحتلالات التي كانت تقيد الحريات (بين الحين والآخر) بإصدار المراسيم والفرمانات التي كانت تحد من حرية الكتابة وإبداء الرأي وتمنع نشر ما يسيء إلى الحاكم أو السلطان.

ومن الطبيعي أن يرتبط ظهور الصحافة بالطباعة، كما حصل في أوروبا، لأنهما توأمان في المهنة والمصير.

إلا أن الصحافة اللبنانية تأخرت زمناً طويلاً قبل أن تواكب زميلتها التوأم في مسيرتها الشاقة. ولئن جاءت ولادة الطباعة العربية في مراحلها التاريخية الأولى أوروبية النشأة

(كمطبعة «فانو» في إيطاليا عام ١٥١٧ التي عنيت بطباعة بعض المخطوطات العربية القديمة)، فإن المشرق العربي آنذاك كان يعتمد على النسخ لاعتبارات دينية مقدسة. وعلى ذلك، لم يتسنّ للبناني أن يتعرف على فن الطباعة العربية إلا في أواسط القرن الثامن عشر، حين أسس الشيخ نقولا الجبيلي الشهير بـ (أبي عسكر) مطبعة القديس جاورجيوس عام ١٧٥١.

وقد يبدو واضحاً أن الفاصل الزمني بين تأسيس أول مطبعة في لبنان، وبين صدور أول صحيفة فيه عام ١٨٥٨، كان حوالي القرن من الزمن، لذا عنيت السلطات العثمانية بتنظيم المطابع في لبنان والولايات السورية قبل أن تهتم بتنظيم الشؤون الصحفية. ففي عام ١٨٥٧ عمّد السلطان عبد المجيد إلى إصدار لائحة قانونية كانت الأولى من نوعها في بلاد الشام. ولم يكن إذ ذاك في لبنان سوى مطبعتين: المطبعة الأميركية (١٨٣٤) التابعة للإرسالية الإنجيلية والمطبعة الكاثوليكية (١٨٤٨) العائدة لليسوعيين.

وأهم ما اشتملت عليه هذه اللائحة إلزام المطابع بالحصول على ترخيص قانوني لمزاولة أعمالها وإخضاع مطبوعاتها للرقابة المسبقة ضماناً لأمن الدول وسلامتها العامة. وفي العام ١٨٦٥ صدر أول نظام للمطبوعات الصحفية والرقابة عليها. وتضمن الوسائل الكفيلة للحصول على ترخيص مسبق لنشر الجرائد وتحديد مسؤوليات المشرفين عليها وحالات التعطيل الدائم والمؤقت وتفاصيل العقوبات الجزائية والغرامات المالية.

ولعل أول لبناني أصدر جريدة بإسم (السلطنة) هو اسكندر شلهوب عام ١٨٥٧ بإيعاز من السلطان في الإستانة، ولكنها لم تعمر.

أما مولد الصحافة العربية في لبنان والجريدة العربية، كانا على يد خليل الخوري الذي أسس في بيروت عام ١٨٥٨ أول جريدة شعبية عربية عرفت بإسم (حديقة الأخبار). ولعل السبب الرئيسي، والدوافع الكبرى لإقبال اللبنانيين على إصدار الصحف والمجلات بكثرة يعود لاحتكاكهم بالشعوب الأوروبية وتطلعهم للحرية وحبهم للمعرفة والعلوم والتزود بالثقافة والحضارة الغربية.

وقد أصدر الكونت رشيد الدحداح جريدة (برجيس باريس) في باريس عام ١٨٥٨، ثم تبعه المفكر والأديب اللبناني أحمد فارس الشدياق، فأصدر جريدة (الجوانب) في اسطنبول عام ١٨٦٠، فكانت هذه الجريدة أعظم صحيفة عربية كما سماها معاصروه (تايمز الشرق) وكانت الجوانب تعمل على تأييد سياسة الحكم العثماني (الخلافة العثمانية).

أما الجريدة العربية الثانية في لبنان فقد أصدرها المعلم بطرس البستاني عام ١٨٦٠ في بيروت بإسم (نفير سوريا) وكانت هذه الصحيفة حرباً على المذابح التي ارتكبت وذهب

ضحيتها الأبرياء والمساكين.
ومع بداية الستينيات توالى إصدار الصحف والمجلات في لبنان، وهاكم لمحة سريعة
عن بعض هذه الإصدارات.
عام ١٨٦٣ أصدر المرسلون الأميركيون جريدة بإسم (أخبار عن انتشار الإنجيل في
العالم).
عام ١٨٧١ أصدر سليم البستاني جريدة سياسية يومية بإسم «الجنية» وهو أول صحافي
عربي يقوم بهذه المحاولة المهمة.
عام ١٨٨٦ أصدر الأمير علي ناصر الدين جريدة «الصفاء» في بيروت.
عام ١٨٩٢ أصدر الشيخ نوفل الخازن جريدة بإسم «الجمعية» ولكنها لم تعمر.
عام ١٩٠٩ أسس الشيخ أحمد عباس الأزهري جريدة «الحقيقة» التي كانت تعبيراً صادقاً
عن هموم وقضايا الناس.
عام ١٩١٨ أصدر رشيد نصر جريدة يومية بإسم «السلام».
عام ١٩٢٤ أصدر سجيح الأسمر جريدة يومية سياسية بإسم «الجمهورية» ورغم انتقال
وتغيير ملكيتها استمرت بالصدور.
عام ١٩٣٢ أصدر عارف الغريب وأحمد السبع جريدة سياسية يومية بإسم «المساء»
وظلت تصدر حتى عام ١٩٣٩.
عام ١٩٣٨ أصدر مصطفى المقدم جريدة يومية سياسية بإسم «التربية» وعام ١٩٤٠
غير إسمها وأصبحت «النضال».
عام ١٩٤٣ أصدر أحمد حسن السبع جريدة سياسية يومية بإسم «الهدى».
عام ١٩٥٠ أصدر رياض طه مجلة أسبوعية سياسية بإسم «الأحد» تبذلت ملكيتها مراراً.
عام ١٩٥١ أصدر محمد البعلبكي جريدة يومية سياسية بإسم «صدى لبنان».
عام ١٩٧٦ أصدر فاضل سعيد عقل وأنطوان جبيلي مجلة أدبية اجتماعية بإسم «وقائع
الحرب».

عام ١٩٨٩ أصدر فؤاد زكريا الحركة مجلة أسبوعية اجتماعية بإسم «القضية» من هذه
اللمحة السريعة والخاطفة المختصرة لأسماء الصحف والمجلات التي صدرت في لبنان،
يتبين لنا أنه كان هناك دوافع وطنية وطائفية ومذهبية جعلت الكثير من الهيئات والمؤسسات
والإرساليات في لبنان تعمل لإصدار الصحف الخاصة بها، لتعبر عن رأيها وتمثل وجودها
وتبث الدعاية لعقيدها وتدافع عن أهدافها ومصالحها وخصوصياتها. أما الأفراد الذين
أصدروا الصحف والمجلات الخاصة بهم فهم الذين كانوا يناصرون القضايا الوطنية

ويدافعون عن حرية الشعب وحقوقه وينددون بسياسة الإحتلال الأجنبي، هذا التنديد والتشهير قادة الكثير من الصحفيين اللبنانيين إلى أعواد المشانق والسجون. إضافة إلى كل ما تقدم، امتاز اللبنانيون عن غيرهم من العرب بأنهم كانوا أسبق الجميع إلى إدخال نشر الصحف في بلادهم، وهم أول من مارس الصحافة ممارسة فعالة وعلى نطاق واسع داخل لبنان وخارجه في الدول العربية والإسلامية والغربية. ورغم أن البحث يدور حول الصحافة ونشأتها في لبنان، لا بد لي من القول أن المجتمع الواعي، يرقى بصحفه الواعية، كما أن وسائل الإتصال المرئي والمسموع والمكتوب من العوامل التي تبشر وتعجل بالتغيير الإجتماعي والإعلام حق من الحقوق الأساسية للإنسان. إن سمات المجتمع الراقي المتحضر، تعبر عنه الصحافة المكتوبة والإعلام المرئي والمسموع، لأن الثقافة والصحافة فكرٌ وخلقٌ وإبداع. والصحافة رسالة والثقافة حضارة والمسؤولية واحدة تربط ما بينهما بميثاق شرف لأمانة الكلمة وصون الصحافة وحريتها. وفي العالم الحر المتقدم تحتل الصحافة موقعاً مهماً حيث تعد مصدراً من مصادر الحياة الثقافية العامة ومنبعاً من منابع التطور السياسي والفكري والإجتماعي. فالصحافة لسان الأمة تعمل دوماً لرفع مستوى الأمة، المخلصة لأهدافها. وما يمكن أن نطلقه على رجال الصحافة العاملين على خدمة الشعب والأمة إلا حكومة منظمة، تتألف من أشخاص مختصين لكل منهم دور وعمل محدد وسلطة خاصة. والصحافة إذا صلحت في أمة أصلحتها، وسلكت طريق التوجيه والإرشاد، وإذا فسدت في أمة أفسدتها، فنشرت في الأمة الرشوة والسرققة والفساد والضياع، لذلك فإنها ضرورة ملازمة لحياة الأفراد والمجتمع.

الصحفي^(٣)

عندما نتحدث عن الصحافة بشكل عام، لا يمكننا تناسي أو إغفال الشخصية المشغلة بها، والمنتسبة إليها، والخائضة غمار البحث والتدقيق في قضايا المواطن والمجتمع والأمة، للوصول إلى الخبر الصحيح والتفكير السليم اعتماداً على الإنسان الذي ينشد الحقيقة والصراحة والوضوح.

لقد اختلف الأدباء في تحديد (الصحفي). فرب قائل بأنه هو الذي يكيف فكرته تكييفاً سهلاً، حيث تكون سهلة الدخول إلى قلوب القراء، وسريعة الغزو إلى عقولهم. وهناك من يقول، بأن الشخص المتعلم النشيط الذي تهيأت له وسائل اقتناص الخبر والمعلومات من الكبار، (صانعي القرار). ومهما اجتهد أو اختلف فإننا نفضل إطلاق لفظ (الصحفي) على

كل من يشتغل في الصحف والمجلات سواء كان محرراً، أو مخبراً، أو مديراً مسؤولاً، ما دام قد انتمى رسمياً إلى خدمة «صاحبة الجلالة» وفاز من نقابتها باللقب الكريم، إن استوفى شروط الخدمة والانتساب.

ومهنة الصحفي شاقّة جداً وعليه أن يواجهها بكفاءة عالية ودقة وثبات، وأن يخلص لعمله ويتعشقه. فإذا أدى واجبه وعمله على أكمل وجه وأرضى ضميره، كانت له المكانة اللائقة والمنزلة الكبيرة عند أرباب الفكر والمجتمع.

ولم يخطئ من شبه الصحفي بشمعة تحترق لتبوير الطريق للناس، فهو صاحب الفكر الثاقب، والعقيدة الراسخة، والقلم البليغ النافذ، لأنه يجعل نفسه وفكره ومواهبه وقفاً على خدمة وطنه، وصالح أمته، حيث يفرس الفضائل والحقائق.

والصحفي هو الذي نراه متحدياً للصعوبات التي تعترض سبيله في العمل، ويستطيع أن يسطر بقدراته الخارقة وإخلاصه لواجبه على أصلب القلوب، وأدق المواقف، ويحول بمهارته مجرى السياسة العليا نحو الهدف الأسمى.

والصحفي صائد أخبار ولا يمكن أن يوقع طريدته في شباكه إلا إذا فتش عنها بولع شديد، وفتح عينه في كل اتجاه حتى يراها، وأرهدف سمعه لكل حركة حتى يشعر بوجودها. فالأخبار دائماً طريدة الصحفي الذي يسأل ويفتش عنها أينما توجه وحيثما حلّ.

والصحفي يجب أن يكون دائم الحضور بذاكرته وذهنه إلى أبعد الحدود حتى لا يظهر الفتور فيما يكتبه أو يحرره، بل يحاول دوماً أن يضيف معلومات جديدة إلى محصلته الثقافية، سواء بالمطالعة، أو السماع، أو المشاهدة، حتى يتمكن ويصبح قادراً بتعرفه إلى أي شخص رآه ولو لمرة واحدة من صورته، لأن ذلك يفيد في تمكين علاقاته بالكثير من الأشخاص الذين يساعدونه في عمله، كما يمكنه أن يذكر أسماءهم تحت الصور التي ربما لا يعرفها المدير المسؤول أو سكرتير في حين أنه مضطر للحديث عنها وتقديمها للقراء.

والصحفي، يجب أن يكون مزوداً بخبرة كبيرة عن طبيعة البلاد وديساتيرها وأنماط الحكم فيها، وأصول البحث في المراجع المختلفة (كالقواميس والمعاجم والموسوعات ومصنفات المعارف) حتى يستقي منها ما يريد أو يحتاج لدراسته أو تحليله الصحفي.

والصحفي، هو من يتحرى الصدق والإخلاص في قول الحقيقة ويستمتع باستمرار لصوت ضميره تجاه وطنه وأمته، إنه الإنسان الذي يتعلق بفكرة ويحتفظ بها ويهذبها ثم ينشرها للجُمهور، متحدياً في سبيل الدفاع عنها كل الأخطار والمصاعب. فأمثال هذا الصحفي قد يستطيعون مع الزمن تحريك هذا العالم (المتصارع) وتوجيهه نحو المسار الصحيح.

فالصحفي الناجح هو من ينشغف بالماضي والحاضر والمستقبل، ويطالع الصحف

والكتب المختلفة، حتى ينقد ويدقق ويستفيد.

والصحفي الناجح يجب أن يكون لائق المظهر، لبق المعشر، ذا شخصية جذابة قوية، يتقن تقاليد الطبقات الأرستقراطية، وتقاليد عامة الشعب، وعليه أن يكون متعلماً ومتقناً لبعض اللغات الأجنبية كتابة ومحادثة. والأهم من ذلك أن يكون محدثاً مفوهاً حاضر البديهة متفنناً في الحوار، وإخراج الكلام وإتقان صناعته كراً وفضلاً.

رسالة الصحفي

إن الصحافة تعادل الطب والقانون كمهنة من المهن، فإنها تكون بين هذه المهن الثلاث الوحيدة التي لا يسيء إليها التبدل والتغير. إن التخصص أمام المحكمة أو إلى جانب السرير يؤدي إلى الكمال ويبلغ نتائجه. والطبيب العظيم هو الجراح العظيم أو هو المعاین العظيم، ولا يمكنه أن يكون كليهما معاً، والمحامي العظيم قلما يكون عظيماً كمستشار قضائي وكفقيه قانوني، معاً.

أما المحرر العظيم فهو ليس الكاتب العظيم، ولكن يجب عليه أن يتمكن من الكتابة، وأن يكون متذوقاً للكتابة. إن مكتب المحرر مملكة صغيرة. ويحتاج المحرر القديم إلى معرفة كل شيء في مملكته، من غرفة المحرر إلى غرفة الكتاب إلى غرفة الإخراج. ويجب أن يكون مالكاً زمام كل شخص وكل أمر في الجريدة وخاصة إذا كان قد ارتقى، خطوة خطوة، إلى الأوج من الحضيض. وهو وإن كان على مستوى الرئاسة إلا أنه يجب أن يتأثر بغيره في الوقت نفسه، كما يجب أن يشعر مع غيره وأن يعتز بنفسه وأن يتمكن من أن يغربل ويتحرى ويفوز بسرعة، وأن يكون على معرفة شتى وخبرة ورغبة في العمل.

المصادر

- (١) أنظر أنور الجندي، تطور الصحافة العربية في مصر، صفحة ٢٠.
- (٢) بسم الله الرحمن الرحيم (لم يكن الذين كفروا من أهل الكتب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة رسول من الله يتلوا صحفاً مطهرة فيها كتب قيمة) صدق الله العظيم.
- (٣) الصحفي هي الأكثر دلالة من صحفي على من يعمل في الصحافة هذه الأيام وهي الكلمة الأحسن والأصح لمن يلقب بكلمة "Journaliste" في الغرب.

الفكاهة والضحك وروادهما في التراث العربي واللبناني

أ. د. لويس صليبا

ما أحوجنا في الزمن العابس هذا، زمن جائحة كورونا والأزمات الاقتصادية والاجتماعية الخانقة، إلى بسمة بل وضحكة، فهي خير ترياق لسموم الأحزان والتشنجات. ومن هنا خطرت لنا فكرة هذه الدراسة، فالفكاهة والضحك تقليد راسخ في تراثنا العربي واللبناني، بيد أنه مهمل تارة، ومنسي طوراً، ومهجور غالباً. ولا بد من مذكّر يعيدنا إلى جذور نستوحي منها أفكاراً وأخباراً بيضاء لآيامنا السوداء هذه.

الضحك في التقاليد الإسلامية

والضحك، كما سبق وأشرنا، تقليد راسخ في تراثنا الروحي والثقافي. وفي المصنّفات التراثية والحديثية الكثير من الحث عليه. وأكتفي ببعض الأمثلة كي لا أطيل. أثر عن رسول الإسلام، ص، أنه كان يضحك حتى تبدو نواجذه^(١)، أي أضراسه. وأخرج له ابن عبد ربّه الأندلسي (ت ٣٢٨هـ/ ٩٤٠م) جملة أحاديث في هذا الشأن، ومنها: «رَوَّحُوا القلوب ساعة بعد ساعة، فإن القلوب إذا كلَّت عميت» (ابن عبد ربّه، العقد، م. س، ص ٣٧٩/٦). وحديث آخر عن أحد أصحابه نعيمان بن عمرو: «دخل نعيمان الجنة ضاحكاً، لأنّه كان يضحكني» (العقد الفريد، ص ٣٨١/٦).

وعن سويداء جارية زوجته عائشة، قال الرسول، ص، عند وفاتها: «اللهم إنها كانت حريصة على أن تُضحكني، فأضحكها فرحاً» (العقد الفريد، م. س، ص ٣٨١/٦).

الضحك في الكتابات المسيحية المنحولة

واللافت أن كتب التراث الإسلامي، تنقل عن التقاليد المسيحية دعوة إلى الضحك، وتشجيعاً عليه. أورد ابن عبد ربّه في العقد الفريد، عن «بعض الكتب المترجمة» على حدّ قوله، ولعلها من الآداب والأناجيل المنحولة، عن رسولي المسيح بطرس ويوحنا الرواية التالية: «إن يُحَنَّا (يوحنا) وشمعون (بطرس) كانا من الحواريين، وكان يُحَنَّا لا يجلس مجلساً إلا ضحك وأضحك من حوله، وكان شمعون لا يجلس مجلساً إلا بكى وأبكى من حوله. فقال شمعون ليُحَنَّا: ما أكثر ضحكك، كأنك قد فرغت من عملك؟ فقال له يُحَنَّا: ما أكثر بكاءك، كأنك قد بيستت من ربك؟ فأوحى الله إلى المسيح: إن أحبّ السيرتين إليّ سيرة يُحَنَّا» (العقد الفريد، م. س، ص ٢٨٠/٦).

وفي العقد الفريد رواية مماثلة عن يوحنا المعمدان ويسوع: «وفي بعض الكتب أيضاً أن عيسى بن مريم لقي يحيى بن زكريا، فتبسّم إليه يحيى، فقال له عيسى: إنك لتبسّم تبسّم آمن! فقال له يحيى: إنك لتعبسّ عبوس قانط! فأوحى الله إلى عيسى: إن الذي يفعل يحيى أحبّ إليّ» (العقد الفريد، م. س، ص ٣٨١/٦).

الضحك عند قدامى العرب

ودرج القدامى على أن «الضحك عنصر ضروري في الحياة، لأنه نوع من اللعب، واللعب من طبيعة الحياة»^(٢) وتأتي آية الذكر الحكيم مصداقاً لهذا القول: إنما الحياة الدنيا لعبٌ ولهو (سورة الحديد/٢٠).

وذكر الراغب الأصبهاني (ت ٥٠٢هـ/١١٠٨م) عن بعض القدماء قولهم: «الناس في سجنٍ ما لم يتمازحوا»^(٤)

ومن نصائح القدماء أن نستقبل الموت بالضحك كما استقبلنا الحياة بالبكاء، يقول الشاعر:

وَلَدَتَكَ أُمُّكَ يَا ابْنَ آدَمَ بَاكِيًّا

وَالنَّاسُ حَوْلَكَ يَضْحَكُونَ حَبُورًا

فاجهدْ لنفسِكَ أَنْ تَكُونَ إِذَا

بَكَوَا فِي يَوْمِ مَوْتِكَ ضَاكِحًا مَسْرُورًا^(٥)

يركز الشاعر على الطباق والتضاد بين الحياة والموت. الطفل يولدُ باكيًّا، والناسُ يتفاءلون ببيكائه عند الولادة، فإن لم يبك عندها، عمدوا إلى قرصه كي يفعل. وبالمقابل كما يستقبل المرءُ الحياة بالبكاء، عليه أن يستقبل الموت بالضحك. وكي يموت ضاحكاً عليه أن يدأب جاهداً في هذا السبيل بالبرِّ وحسن الأعمال إلخ. وتذكرنا هذه الأبيات بسيرة ذاك الحكيم التبيتي الذي مات وهو يضحك. كما وتذكرنا بشجاعة مدام دو بومبادور^(٦) وظرفها الدائم حتى في ساعة وفاتها، وذلك رغم أنها ماتت شابة وبعد أن عانت وتألّمت من مرض السل. فقد قدّمت للنساء مثلاً حياً عن رباطة الجأش وخفة الروح والدم أمام الموت. إذ لمّا ابتعد عنها الكاهن بعد أن حمل إليها سرّ القربان المقدّس عند ساعتها الأخيرة، أشارت إليه بالعودة هامسة: «انتظر لحظة، سنذهب معاً»^(٧) ورحلت محافظة على ظرفها حتى اللحظة الأخيرة!!

وهكذا فمن يعرف كيف يعيش، يعرف كيف يموت، كما يقول مثلٌ شعبي. وكثر من الرجال والنساء من ذوي الروح المرحة غادروا هذه الدنيا وهم على مرحهم المعتاد، غير عابئين بالموت، ومرددين أروع الأقوال وأشدّها إثارة، وأغربها أحياناً. (شيخاني، م. س، ص ٤٠٢).

الضحك عند متصوفة المسلمين

ومن التصوّف الإسلامي نصيحة بل قاعدة ذهبية من سلطان العارفين أبي يزيد البسطامي (١٨٨-٢٦١هـ)، يقول موجزاً مساره الصوفي: «لم أزل أسوق نفسي إليه وهي تبكي، حتى ساقنتني إليه وهي تضحك»^(٨)

كيف نفهم هذا التناوب بل هذا التضاد والطباق بين بكاءٍ وضحكٍ وهو ما يتحدث عنه أبو يزيد وبه يختصر مساره الصوفي؟!^٩

بداية الطريق الصوفي عملٌ مضمّنٌ وجهدٌ دؤوبٌ يطبّع ويمرّس فيه السالك فكره، أو نفسه، والنفس تأتي خصوصاً هنا بمعنى الذهن أو الفكر الجموح والنطاط كما بيّن البيروني في كتابه بالتجلى الهندي^(٩). والفكر الدائم الهيجان، والكثير الرغبات حيوانٌ بريّ يحتاج إلى ترويضٍ وتدجين. وهذا هو الجانب المضمّن بل المبكي من المسلك، ولا بدّ منه بدايةً للخروج من المعاناة. ولكن ما أن يروّض هذا الفكر ويدجّن حتى يغدو استغراقه في الحقّ (أو المطلق) **Samadhi** مصدر فرح بل ينبوعاً من الغبطة، وبذلك يسوق أي يقود صاحبه نحو الحقّ وهو يضحك. وهذا التناوب بين البكاء والضحك من طبيعة الذهن وسنرى في التالي أن مصدرهما مركزٌ واحدٌ في الدماغ، وكمن مرةً بكينا فرحاً، أو ضحكنا حزناً وإرباكاً. أما تحويل البكاء إلى ضحكٍ كما يحكي البسطامي في مقولته فمسارٌ صوفي يرتكز إلى طبيعة الفكر أو النفس.

الضحك في الأمثال العربية واللبنانية

ثقافتنا العربية وتقاليدنا اللبنانية كلّها تدعونا بإلحاح إلى الضحك وتشجّعنا عليه. وتعبّر عن ذلك الأمثال العربية واللبنانية المتداولة.

وأولها المثل القائل: «اضحك تضحك لك (أو معك) الدنيا، ابك تبكي وحدك»^(١٠). وهذا المثل القديم تؤكّده حقيقة علمية مثبتة اليوم فالضحك يُعدي وهو اتّصالي **Communicatif** بطبيعته. وهذا ما نخبره دوماً في جلساتنا وأحاديثنا، فما أن يضحك واحدٌ في جلسةٍ أو لقاء، حتى يستغرق سائر الحاضرين في الضحك.

وثمة مثل عميق الدلالة هو الآخر، ويقول: «شرّ البليّة ما يضحك»، إنّه دعوةٌ صريحة كي نضحك عند وقوع البلى عوض أن نبكي أو نتشجّع أو نغضب. وليتنا نستطيع أن نكتسب ردّة الفعل هذه **Reflex**، فهي تجنّبنا الكثير من الضغوطات وتقينا من التوترات **Stress** التي تقع فريسةً يوميةً لها. ولا يغربن عن بالنّا هنا أن الضحك من ميّزات الإنسان، فالحيوانات لا تعرف الضحك، في حين أن التشجّع والغضب والعنف كلّها ردّات فعل حيوانية ورثناها عن أسلافنا السابقين للإنسان العاقل **Homo Sapiens** ولم نعرف حتى يومنا هذا منها خلاصاً، فهي تحكمنا بل وتتحكّم بنا.

والناس تتحاشى غالباً الإنسان العابس، بل وتهرب منه وتتطير. في حين تتفاعل بالوجوه الضاحكة. ويقول المثل اللبناني عن المرء الكثير العبوس: «وجّو ما بيضحك لرغيف السخن»^(١١). وهي دعوة واضحة وصريحة للضحك بوجه الرزق لجذبه، والرغيف رمزٌ للرزق، ولذا يسمّى «العيش». والقاعدة

الشعبية تقول: «تفاءلوا بالخير تجدوه»^(١٢)، وهي قاعدة موازية ومرادفة للمثل الآنف الذكر «اضحك تضحك لك الدنيا».

ويتفاءل اللبنانيون والعرب عموماً بالوجه الضاحك، ويجدونه نموذجاً راقياً للجاذبية والجمال. يقول الناس في وجه كهذا: «سبحان اللي خلقو على هالضحكة»^(١٣). وتعتبر العامّة الوجه الضاحك والباسم أكثر سخاء من اليد الكريمة المعطاء، فتقول مادحة: «بشاشة الوج أجود من سخا الكف» (عمار، م. س، ص ٧/٧). كما تشبّه الوجه الضاحك بطلّة القمر، وهلال الفطر تقول: «ضحكتو بتهلّ هل» (عمار، م. ن).

ومن الأمثال اللبنانية الأخرى، الدعاء الذي يكرّره الضاحكون، إثر كل ضحكة: «اللّه يعطينا خير هالضحك»، وهو دليل آخر على أن الضحك بالمفهوم العام «خير»، وفأل حسن، وهو ما سيشدّد عليه أنيس فريجة كما سنرى.

ووقفّة أخيرة عند مثل لبناني معبر يركّز على الربط بين الضحكة والصحة، يقول: «حسدنا العالم على ضحكتنا، حتى أجت الأيام أخذتها وأخذت معها صحّتنا»^(١٤). الحسد بين الناس ليس بمستغرب. والمثل اللبناني يقول: «الحسد بين الجيران، والبغض بين القراب»^(١٤).

والحديث النبويّ يحذّر من الأثر السلبي للحسد: «استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان، فإن كلّ ذي نعمة محسود»^(١٥). وقبله آية الذكر الحكيم في سورة الفلق: قل أعوذ بربّ الفلق من شرّ ما خلق، ومن شرّ غاسق إذا وقب، ومن شرّ النّفّاثات في العقد، ومن شرّ حاسد إذا حسد (سورة الفلق ١١٣) وما يستوفّفنا في هذا المثل ربطه بين الضحك والصحة: عندما يفقد المرء ضحكته يفقد معها صحّته، والعلاقة بين الضحكة والصحة علاقة جدلية: نضحك ملء أفواهنا ومن كلّ قلوبنا عندما نتمتّع بصحة جيّدة، والضحكة جالبة للعافية هي، وعندما نخسر ضحكتنا نخسر معها عافيتنا والعكس أيضاً صحيح.

مارون عبّود «قسيس الضحك»

ومن مشاهير الأدباء والمفكرين المعاصرين الذين ضحكوا سحابة عمر وأضحكوا ودعوا الناس إلى الضحك شيخ الأدباء والنقاد مارون عبّود (١٨٨٦-١٩٦٢)^(١٧). وهو يعتبر أن الضحك من أبرز ميّزات الإنسان، يقول: «أرى أن الطبيعة لم تهبنا خاصّة أجلّ من خاصّة الضحك، فهل رأيت أحداً غيرنا من المخلوقات يضحك أو يبتسم»^(١٨).

وهو يدعو إلى مواجهة النوائب بالضحك عوضاً عن التشنّج على طريقة المثل القائل: «وشرّ البليّة

ما يُضحك»، يقول عبّود: «بحياتك اضحك حتى في المصيبة إذا أردت أن تتغلب عليها» (عبود، سبل، م. س، ص ٢٩).

والضحك جالبٌ للرزق يقول شيخ الأدباء، في حين أن العبوس قاطعٌ له: «اسمع ما يقول الناس في العابسين: فلان كشرته تقطع الرزق. (...) أما الضحك فيعبّر به عن كل شيء جميل» (عبود، م. س، ص ٢٩-٣٠). فحتى الطقس الجميل يكتنّى عنه بأن الدنيا تضحك!

وعمل عبّود طيلة حياته ومسيرته الأدبية والفكرية على إضحاك الآخرين، وتفريج كربهم بالضحك: «إذا لم يضحك لي العالم أضحكٌ وحدي، ولا يهنأ لي عيشٌ حتى أضحك جليسي وأستولي على المبادرة. فإذا كانت الابتسامة تفتح في وجهنا الباب، فالضحكة تُحلنا في صدر البيت على الرحب والسعة» (عبود، م. س، ص ٣٣).

والضحك في عرف مارون عبّود خير صلاة: «لو كنتُ قسّيساً لقلتُ: فلنضحك، بدلاً من فلنصل»^(١٩). هنا يلتقي شيخ الأدباء مع يوغا الضحك ومبادئها، فهي تعتبر أن الضحك ممارسة يوغية لا تقلُّ فاعلية وأثراً عن سائر طرق التأمل والذكر Japa بل قد تفوقها أحياناً.

والضحك عند قسّيسه عبّود كان وسيلة تصدّي العقل للممنوع وما يعتبر محرّم. وكان يرى أن البشرية عندما ضحكت بلغت سنّ الرشد. لذا تبنّى أسلوب الإضحاك في طرفه ونوادره، إذ وجد في الضحك جلاءً للقلب، ومنشطاً للعقل الذي يكتسب منه دفئاً معنوياً. ومن هنا كان أدبه الساخر هادفاً، ولا يقتصر على جعل البسمة والضحكة تفتريشان الثغور وحسب، بل سعى جهده إلى تحويل الضحكة إلى لحظة تأمل فكري، فغدا الضحك معه لغزاً إدراكياً وظّفه عاملاً لتنمية الوعي وتطويره.

وبكلمة موجزة، ممّا لا ريب فيه أن مارون عبّود هو أحد أبرز أركان الأدب الضاحك في العربية في الزمن المعاصر. وأقاصيصه ورواياته عن الضيعة اللبنانية مثل «أحاديث القرية» و«وجوه وحكايات» وغيرها أمثلة بيّنة على ما نقول. وهذا الأدب الضاحك وتأثيره وتردّداته من المحيط إلى الخليج يحتاج إلى المزيد من التعمّق والدراسة. فمارون عبّود «جماع الضحك والترصّن. تسعد الدنيا المليئة بالشجن في الجلوس عنده والاحتكام إليه، لتمسح عن عينها صمت البكاء»، كما قيل عنه^(٢٠).

نذر مارون عبّود قلمه ولسانه ليضحك ويضحك، كما قال بنفسه، وذكرناه للتوّ عنه. وكان الضحك خياره في الأدب وفي الحياة، ورسالته إلى أمة «قفا نبيك» وتراث المرثي والبكاء على الأطلال والتباكي، ولسان حاله يقول مع فرنسوا رابليه (١٤٨٤-١٥٥٣) Rabelais أديب الظرف والظرفاء في الفرنسية: «إن قلبي لن يختار موضوعاً آخر لأنني أرى الحداد هو الذي يسيّرنا، ويتآكل نفوسنا. وخيراً للمرء أن يكتب بضحكاته بدلاً من أن يكتب بدموعه. فالضحك هو الذي يميّز الإنسان»^(٢١) ومارون عبّود هو ممّن كتبوا بضحكاتهم، وحسنأ فعل.

أنيس فريحة وأنتروبولوجيا الضحك

ومن الأدباء والباحثين المعاصرين الذين فلسفوا الضحك وأظهروا ميّزاته وفوائده، أنيس فريحة (١٩٠٣-١٩٩٣)^(٢٢). وقاربه لم يعزله عن كشف معارف الحقّ في فنّ الضحك، ولم تحتجزه الجدّية عن الإرشاد إلى التفكّه الذي يجعله التاريخ إحدى الصور الصادقة للأمم والشعوب.

وهو يرى في الضحك ترياقاً مضاداً لكثير الشوائب والمثالب، ولا سيما الغرور والتعصّب واليأس والاكْتئاب. فعن الضحك المداوي للعجرفة يقول فريحة: «الإنسان بدون روح الضحك يفقد كثيراً من حلاوة إنسانيّته. (...) الفكاهة تعيننا على نقد ذواتنا وتنجينا من شرّ الغرور الذي يدفع بنا إلى اعتبار ذواتنا مركز الثقل والأهمّية في الكون. وتنجينا كذلك من عيبٍ آخر وهو حسابنا ذواتنا أتقياء بررة. الفكاهة نعمة سماوية من أوتيتها لا يغترّ ولا يتغترس» (فريحة، م. س، ص ١٨).

وعن الضحك الشافي من الغلو والتعصّب يقول فريحة: «والضحك يقتل فينا كلّ تعصّب وتزمتّ ذميم. فالمتعصّب المتزمتّ لا يضحك. وأخيراً الذي يضحك يحبّ ويرضى ويعطّف، لأنّ الضحك من معدن الخير» (فريحة، م. س، ص ٢٤).

وتستوقفنا عبارة فريحة الأخيرة، وهو الخبير في الأمثال ومن رواد جامعيها، فهي مستوحاة من المثل اللبناني، الأنف الذكر: «الله يعطينا خير هالضحك».

وعن الضحك الماحي لليأس والمداوي للقلق والاكْتئاب وهو مرض العصر يقول فريحة: «الضحك يولد فينا حباً للحياة. وهو قوّة مضادة لكلّ ما من شأنه أن يبعث فينا اليأس والقلق. والضحك يخلق فينا نظرة سليمة بريئة إلى الحياة لا وقر فيها، ولا ثقل، بل مرح وحبّ» (فريحة، م. س، ص ٢٤).

والضحك في عُرْف فريحة نكهة الحياة وسحرها ورونقها، وباعث الجمال فيها: «والضحك سحرٌ خفي يسبغ على الحياة مُسحة من الجمال والغنى. (...) إن عالماً لا ضحك فيه عالمٌ عبوسٌ متجهّم، وحياةٌ لا مرح فيها ولا ضحك حياةٌ جديدة. نكهة العيش في الضحك، وأطيب أوقات العمر سويحات نقضيها في الضحك والمرح» (فريحة، م. س، ص ٢٢-٢٣).

وخير ما نحفظه من مقولات فريحة أن الضحك ترياقٌ حقيقي للتعصّب والتزمتّ، وبالتالي للتكفير والتفجير الذي نقع جميعاً ضحيّة له في هذه الأيام. فالتوتاليتاريون وسائر الدكتاتوريين والمصايين بجنون العظمة Paranoia لا يضحكون، بل يسعون حتى إلى منع الضحك، فهو عدوهم اللدود. ونشر الضحك والترويج له هو حقاً مساهمة فاعلة في العمل للاعنف والسلام العالمي.

ومقاربة فريحة للضحك والنكتة علمية أنتروبولوجية بامتياز، إذ تجاوزت السخرية في أدب النكتة إلى البحث في ارتباطها بالحضارة والإنسان، ولا سيما الإنسان العربي واللبناني. وهو يقول في ذلك: «الفكاهة إنسانية نطاقها الإنسان، أو ما يعتبره أو يتخيّله الإنسان إنساناً. (...) وكلّ شيء غير إنساني

لا يمكن أن يكون مصدر ضحك أو فكاهة» (فريجة، م. س، ص ١٦-١٧). والنوادر والفكاهات عند هذا الأنيس المؤنس أصل في الحضارة، لا مجرد فرع منها. فالإنسان كائن ضاحك يوظف الوسائط المتنوعة لصنع الدعابة كالمبالغة والصورة الكاريكاتورية، فتغدو عنده نوعاً أدبياً مميزاً يرسم البسمة والضحكة على الوجوه، ويمحو العبوس وتقطيب الجبين، ويفرج الكروب ويشرح الصدور. يقول فريجة في ذلك: «الإنسان من دون روح فكهة يفقد الكثير من حلاوة إنسانيته. فهي مليئة للخشن فينا، وتخرجنا من العبوس والتجهم إلى جو من المرح الضروري لصحة عقلنا ودوام نشاطنا» (فريجة، م. س، ص ١٨).

وهكذا رأى فريجة، عن حق واستناداً إلى أبحاث علمية، أن الضحكة ضرورية لتنشيط الذهن. وتميز بأنه فرّق بين الضحك والسخرية. «فغرضه لم يكن يشبه مرامي الهجائين أو الساخرين من بعض أدباء العرب ورواتهم». (شبلي، جورج، مبدعون، م. س، ص ٥١-٥٢).

وهي ميزة لهذا الأديب والمتأدب والمؤدب جديرة بالتوقف عندها، فالأدب العربي، ولا سيما الشعر منه، حافل بأنماط الهجاء والسخرية منذ الجاهلية إلى اليوم. ولكن السخرية من نقائص الآخرين وعاهاتهم ومثالبهم ليست من الأدب، بل غالباً ما تكون من «قلة الأدب». والتجريح نمط من السادية مؤلم. أما الأدب الضاحك فهو ما يُفرح القلب ويُتلج الصدر ولا يؤلم قوماً ويوجعهم ليضحك آخرون ممن ألقوا التشفي من مصاب غيرهم. وفي ذلك يقول الأنيس: «الفكاهة في الأدب مظهر من مظاهر الرقي والدمائة، ودليل على صفاء الذهن. الفكاهة الراقية لا تكون إلا في المجتمع الراقى فكرياً وروحياً، ولا يمكن أن تكون من نتاج الغريزة البدائية، بل تنبع من ينبوع غني بالعاطفة والإحساس» (فريجة، م. س، ص ١٩).

وهنا بالتحديد نجح الأنيس بوضع سنة جديدة للضحك لم تمس روح الدعابة، وإنما شذبت النكتة من التجريح والتبذل على حد سواء. لأن الهدف من الطرف ليس تشويه صورة الإنسان أو إيلامه بالتركيز على عيوبه الجسمية والنفسية وغيرها، بل تصوير بعض جوانبه تصويراً مضحكاً محبباً بعيداً عن الأحكام الجائرة أو الجارحة. وهو يقول في ذلك: «الفكاهة عامة يتذوقها جميع الناس على اختلاف سلالاتهم ومذاهبهم ورفيتهم وتقدمهم (...) وتتخذ أشكالاً عديدة غير أنها جميعها تصدر عن محبة وعطف. فليس في الفكاهة خبث وبغض وحق، لأن مصدرها القلب. الفكاهة سمحة لطيفة، لا تكلف فيها ولا عناء» (فريجة، م. س، ص ١٨).

ونجد أن الباحث د. جورج شبلي لم يجاف الصواب في تقييمه العام لهذا الجانب من نتاج فريجة إذ قال: «أنيس فريجة أرخ للفكاهة عند العرب، كما أرخ لتطور لسانهم. وقد طعم التراث الفكاهي بالجدّة، أي باصطلاحات تعبيرية نقلت إخبار النكات والطرف من مجرد أسلوب سردي

عابر هدفه السخرية من العاهات، إلى فنّ يمكن اعتباره نافذة إلى فلسفة الضحك العابرة لفئات الناس ونفسيّاتهم وطباعهم» (شيلي، م. س، ص ٥٢).
ومن ميّزات فريجة كذلك أنّه كان رائداً في دراسة أدب الضحك والنكتة عند العرب. فاستخرج ما في بطون الكتب القديمة والمصادر من أخبار الضاحكين والماجنين والمضحكين، ووضعها بتصريف الباحثين والقراء، لتكون أسوة ونموذجاً لأدب ضاحك مبدع يواكب العصر ويرفّه عن إنسانه المتعب. وهو يقول في ذلك: «في أثناء مطالعاتنا عثرنا على كثير من الفكاهات والنكات والنوادر التي لها مقابلها في يومنا هذا. وكان حريّاً بنا أن نردّ كثيراً من الفكاهات العصرية الشائعة إلى أمثالها التي وردت في المصادر القديمة» (فريجة، م. س، ص ٩).
وهكذا سعى فريجة أن يصهر معارف الأولين في عالم الفكاهة مع أساليب المعاصرين، بغية الوصول إلى تركيبة فريدة هو الأدب التمردّي الذي لا يحجر على حركة الضحك. ولم يخب في سعيه هذا. وهو في الحقيقة قد خطا خطوة أولى جدية ومهد السبيل لمن شاء أن يتابع الطريق.

أحمد أمين: الإنسان حيوانٌ ضاحك

وآخر من نذكر من الأدباء المعاصرين الضاحكين والمبشّرين بالضحك علاجاً لأدواء العصر الأديب والمؤرّخ المصري أحمد أمين (١٨٨٦-١٩٥٤). وهو على غرار يوغا الضحك دعا، ومنذ ١٩٣٧، إلى استبدال الكثير من الأدوية بالضحك، فهو علاجٌ طبيعي، لا آثار جانبية ولا سلبية له، خلافاً لكل عقار كيميائي وحديث. يقول: «لو أنصفَ الناس لاستغنوا عن ثلاثة أرباع ما في الصيدليّات بالضحك، فضحكة واحدة خير ألف مرّة من برشامة أسبيرين، وحبّة كينين، وما شئت من أسماء أعجمية وعربية. ذلك لأن الضحكة علاج الطبيعة، والأسبيرين وما إليه علاج الإنسان، والطبيعة أهدى علاجاً وأصدق نظراً، وأكثر حكمة. ألا ترى كيف تعالج الطبيعة جسم الإنسان بما تمدّه من كرات حمر وبيض وغيرها (...) ولا يُقاس بذلك شيءٌ من العلاج المصطنع»^(٢٣)

ويمضي أحمد أمين شارحاً، فيذكر بعض فوائد الضحك الصحيّة الجسدية منها والسيكولوجية: «فانفجار الإنسان بضحكة يُجري في عروقه الدم، ولذلك يحمّر وجهه، وتنتفخ عروقه. وفوق كل ذلك فالضحكة مفعول سحري في شفاء النفس وكشف الغمّ، وإعادة الحياة والنشاط للروح والبدن، وإعداد الإنسان لأن يستقبل الحياة ومتاعبها بالبشر والترحاب» (أمين، م. س، ص ٩٩). واللافت أن أحمد أمين يشير في مقالته هذه إلى حقيقة أثبتها العلم اليوم، وهي الأساس الذي تقوم عليه يوغا الضحك، فالضحكة المصطنعة لا يختلف تأثيرها الإيجابي على الصحة النفسية والجسدية عن الضحكة الطبيعية. يروي: «قال لي صديقٌ مرّةً: إنه حاول أن يتغلّب على همومه وأحزانه بعلاج بسيط فتجح:

ذلك أنه إذا اشتدَّ به الكرب، وتعمّدت أمامه الأمور، حتى لا يظنَّ لها حلاً، انفجرَ بضحكة مصطنعة، فسرى عنه، وتبخّرت همومُه» (أمين، م. س، ص ١٠٠).

هنا يبدو هذا الباحث والمفكر المصري سباقاً إلى اكتشاف علمي تركز عليه اليوم تعاليم يوغا الضحك.

ويؤكّد أمين أن الضحك من أبرز ميّزات الإنسان، ومن أهمّ ما خصّته الطبيعة من نعم وأدوات يفرّج بها عن كربِه: «يقول المنطقة في أحد تعريفاتهم للإنسان: «الإنسان حيوانٌ ضاحك»، وهذا عندي أطرف من تعريفهم الآخر: الإنسان حيوان ناطق. فالإنسان في هذا الزمان أحوج إلى الضحك منه إلى التفكير، أو على الأصحّ نحن أحوج ما نكون إلى التفكير والضحك معاً» (أمين، م. س، ص ٩٨). وهذه الحاجة الملحة عبّر عنها أحمد أمين في فاتحة مقاله. فهو يبحث عن الضحك، ويسعى إلى أن يعيشه في كلّ كيانه، ويتحسّسه في أعضاء جسده وجوارحه: «ما أحوجني إلى ضحكة تخرج من أعماق صدري فيدويّ بها جويّ. ضحكة حيّة صافية عالية، ليست من جنس التبسم، ولا من قبيل السخرية والاستهزاء. (...) وإنما هي ضحكة أمسك منها صدري، وأفحص منها الأرض برجليّ. ضحكة تملأ شديقيّ ()، وتبدي ناجديّ، وتفرّج كربِي، وتكشف همّي». (أمين، م. س، ص ٩٧).

لنلاحظ كيف يسعى أمين إلى أن يتفاعل كلّ بدنه مع الضحك، وأن يتحسّس هذا الأخير بكلّ جارحة منه: الصدر والرجلين والفكين. وهذا تحديداً ما تعلمه اليوغا وتنصح به. والخلاصة، فأحمد أمين مفكّر ومؤرّخ، وعى بالتجربة والتبصّر بها أهميّة الضحك، وأثره الإيجابي ولا سيما من النواحي الفيزيولوجية والسيكولوجية، في تطهير الجهاز العصبي ممّا عرف لاحقاً ب Stress أي التشنّجات.

تأثير الضحك من منظور العلم

ولكن وبعد أن أثّرنا موضوع الأثر الطّبيّ والنفسي للضحك ناقلين عن أحمد أمين، فماذا يقول الأطباء والباحثون والعلماء اليوم في هذا الصدد؟

يقول توماس هويسن: «للضحك وظيفتان إحداهما فيزيولوجية تتعلّق بالجسد، والأخرى سيكولوجية تتعلّق بالعقل»^(٢٤)

ويؤكّد عدد من الأطباء والباحثين الألمان أن الضحك يؤثّر في الجسم والعقل معاً، ويساعد على الهضم، ويقوّي دورة الدّم، ويزيد في إفراز العرق، ويرفع القوّة في كلّ عضو من أعضاء الجسم. (قرّة علي، م. س، ص ٢١).

ويخلص هؤلاء الأطباء الألمان في مجمل بحوثهم إلى أن الضحك يطيل العمر، فكلمًا

ضحك الإنسان أضاف إلى حياته مدّة. (م. ن).

وأثبتت البحوث العلمية اليوم أن الضحك يفرز هرمونات الفرح الأندورفين والدوبامين **Endorphine et Dopamine** وغيرها. وأن لا فرق بين الضحك المصطنع والعضوي فتأثيرهما الإيجابي على الجسد وفيزيولوجيته واحد. ومن هنا أهميّة الممارسة الجماعية للضحك: يكفي أن يضحك واحدٌ في جلسة كما ذكرنا، حتى يضحك الآخرون. لذا ففي الجماعة تطول فترة ممارسة الضحك لأنّه ذو طابع اتّصالي ومعدٍ كما أشرنا: ما أن ينتهي واحدٌ حتى يبدأ آخر، وهكذا يتواصل الضحك ويكاد لا ينتهي. وهذا ما لا يتوفّر للمرء عندما يضحك لوحده. والكلّ يعرف أهميّة أجواء الفرح في إشاعة السعادة، لذا يبحث الجميع عنها. والملاحظ أنّه يكفي للمرء أن يجبر نفسه في البداية أن يضحك، حتى يتواصل ضحكه بعدها بصورة عفويّة. فهو لا يحتاج إلا لمجهود بسيط في البداية للدخول في عالم الضحك. النقطة أو المرحلة الانتقالية القصيرة الفاصلة بين عالمي الجّد والضحك وحدها تحتاج إلى بعض من المجهود، وبعدها تتوالى الأمور بصورة طبيعيّة. والضحك الجماعي يجعل سائر الحاضرين على موجة واحدة، ويؤالف بين القلوب، ومن هنا أهميته في نشر اللاعنّف وإشاعة السلام. ويؤكّد عددٌ من علماء الأنثروبولوجيا الذين درسوا الموضوع أن «الضحك هو اللغة الوحيدة المشتركة بين بني الإنسان. وهو الذي ولد قبل أن تولد اللغات واللهجات، وسيبقى حتى لو انقرضت اللغات واللهجات» (قرّةعلي، م. س، ص ٢٢).

ويشير هؤلاء إلى خاصيّة في الضحك تركّز عليها اليوم يوغا الضحك في تعاليمها، فهو معدٍ وتواصل. يقولون: «إن سرّيان الضحك لا يقلّ بين بني الإنسان عن مسرى لغاتهم نفسها. وإن اختلف بين جنسٍ وجنس، ووطنٍ ووطن» (قرّةعلي، م. س، ص ٢٢). ويؤكّد الطبيب د. وليام فري من جامعة ستانفورد/أميركا أن الضحك مثل الألعاب الرياضية، له فوائد لا تتلاشى. وبعد الضحك تبدأ العضلات بالاسترخاء عن ذي قبل، فتمنح انفرجاً من معاناة كثيرة. ويخلص د. فري إلى أن الضحك يتّصل اتّصلاً وثيقاً بطول العمر، وذلك لفاعليته.^(٢٥)

ومعلومٌ أن مركزيّ الضحك والبكاء واحدٌ في الدماغ، فمنهم من يضحك من شدّة الحزن، ومنهم من يبكي من شدّة الفرح. (فريجة، م. س، ص ٣٠). وهي برأينا مسألة علمية مهمّة وبالغة الدلالة. فأكثرنا خبير أو أقلّه عاين من يبكي فرحاً ومن يضحك حزناً أو عند المصيبة، طبقاً للمثل الأنف الذكر: «وشرّ البليّة ما يُضحك». فطالما أن الضحك والبكاء كليهما متأتّيان من مركزٍ واحدٍ في الدماغ، لذا يسهل أن نقلب البكاء إلى ضحك. وفي ذلك يقول الشاعر الإنكليزي

اللورد بايرون (١٧٨٨-١٨٢٤): «إنني أضحك كي لا أبكي» (حنين، م. س، ص ٢٢/١).

ويلخص الطبيب د. هارثي كيلوج الأثر الصحي للضحك، ووجوب ممارسته وإدخاله في الروتين اليومي للإنسان بالنصيحة التالية: «كُل نصف ما اعتدت أن تأكل، ونم ضعف ما اعتدت أن تنام، واشرب ثلاثة أضعاف ما اعتدت أن تشرب، واضحك أربعة أضعاف ما اعتدت أن تضحك، فإن فعلتَ متَّمتَ بأفضل عمر» (قرّةعلي، م. س، ص ٣٥).

وفي أيامنا هذه واصلت مراكز الأبحاث الطبيّة والعلمية دراساتها في مجال الآثار الفيزيولوجية للضحك. ومنها ما قامت به مايو كلينيك مركز البحوث الشهير في أميركا. وأثبت أن الضحك يمنح فوائد جمّة سواءً على المدى القصير أو البعيد، حيث يعمل الضحك على تعزيز استنشاق الهواء الغني بالأوكسجين ما يحفّز القلب، والرئتين، والعضلات، كما يساعد على تحفيز الدماغ لإفراز هرمون الإندروفين وبالتالي رفع قدرة الجسم على تحمّل الألم، وذلك لأن الإندورفين «مسكّن ألم طبيعي» حسب تعبير صوفيا سكوت عالمة الأعصاب والأستاذة في كلية لندن الجامعية (UCL). ويمكن للضحك تسكين بعض الأعراض الجسدية للتوتر من خلال تحفيز الدورة الدموية والمساهمة في استرخاء العضلات.

ومن شأن الضحك أيضاً التخفيف من التوتر والضغط النفسي الذي نتعرّض له يومياً، وقد يكون جزءاً من علاج بعض الأمراض النفسية كالقلق المرضي والاكتئاب. ففي دراسة حديثة تناولت مجموعتين من مرضى الاكتئاب، تمّ فيها اتّباع العلاج التقليدي في إحدى المجموعتين في حين دُمجت يوغا الضحك بالعلاج التقليدي في المجموعة الأخرى لمدة ٣ شهور، وأظهرت النتائج فاعلية يوغا الضحك في تحسين الصحة النفسية إلى جانب إمكانية اعتبارها علاجاً مسانداً لمداواة الاكتئاب.

تجربة شخصية في تأثير الضحك

ونختم بتجارب شخصية لنا في الضحك، وتأثيره الإيجابي.

كنت في السنة الرابعة والأخيرة من دراستي الجامعية للحصول على الإجازة التعليمية Maitrise في اللغة العربية وآدابها من كلية الآداب/الفرع الأوّل في الجامعة اللبنانية في الأونسكو-بيروت. وكانت حرب لبنان في ذروتها ١٩٨٤، والوطن مقطّع الأوصال، والعبور من المنطقة الشرقية حيث أقيم إلى المنطقة الغربية حيث الكلية، أشدّ صعوبة من عبور الحدود بين بلدين في حالة عداء: حواجز تفتيش، وإجراءات أمنية وغيرها، تستغرق غالباً الكثير من الوقت.

وكان عليّ أن اجتاز امتحاناً في مادّة كنا نعتبرها من أصعب الموادّ، ألا وهي فقه اللغة العربية. وكان أستاذنا في هذه المادّة شيخ علامة فاضل هو الشيخ الدكتور صبحي الصالح (١٩٢٦-١٩٨٦) رحمه الله. وكنا نستصعبُ عموماً هذه المادّة لدقّتها، ولصرامة أستاذها في التصحيح. وكانت مسابقة هذه المادّة أولى المسابقات في آخر تلك السنة. وهي المادّة الوحيدة التي كان يُسمح فيها استخدام الكتب والوثائق في الامتحان **Examen à documents permis**

وكنْتُ قد عزمت على أن أنجح في هذه المادّة الصعبة، مهما كلف الأمر من جهد ودراسة. وطالما أن إدخال الكتب مسموح في امتحانها، خطر لي أن أحمل معي المرجع الأساسي في المادّة وهو موسوعة معجم لسان العرب لابن منظور، وهي في ١٦ عشر مجلّد كبير، إضافة إلى معاجم ومصادر أخرى. فبلغ مجموع ما سأحمله إلى قاعة الامتحانات نحو ٢٠ مجلّداً. ولكن كيف العبور بين المنطقتين للوصول إلى الكلية مع هذا الحمل الثقيل، وبيتي في جبيل أي على مسافة نحو ٤٠ كلم من مقرّ الامتحانات؟!

لم يكن أمامي من حلّ سوى استخدام حقيبة سفر كبيرة كانت لوالدي، فأضعتُ فيها كل هذه المجلّدات. والاتّكال على الله وعلى قوّة ساعديّ في العتالة. وكان عليّ أن انتقل من سيّارة أجرة إلى أخرى، بهذا الحمل الثقيل واضعاً الحقيبة في صندوق السيّارة. وعند عبور الحواجز بين المنطقتين كنتُ مجبراً أن أنزل لأفتح الحقيبة لتفتيشها. والخلاصة فكلّ هذه الإجراءات جعلتني أتأخّر عن موعد الوصول صباحاً إلى حرم الجامعة. وعند وصولي كان عليّ أن أمضي أولاً إلى مبنى الإدارة للحصول على بطاقة تتيح لي الدخول إلى قاعة الامتحان. وهذا ما فعلته. فمضيتُ إلى المبنى، ووضعتُ حقيبتي الكبيرة عند الناظر الذي كان يعرفني، وصعدتُ وشرحتُ للموظّف سبب تأخّري الناتج عن الحواجز على الطريق، فكان متفهّماً وأعطاني البطاقة قائلاً تمضي بها وعند وصولك إلى القاعة تذهب مباشرة إلى الناظر المسؤول وتريه بطاقتك وتشرح أسباب تأخّرك.

استرجعتُ حقيبتي، وكان عليّ أن أجتاز بها سيراً على الأقدام المسافة البعيدة بين مبنيي الإدارة وقاعة الامتحان. وعند وصولي إلى هذا الأخير صعدتُ حاملاً حقيبتي الأدرج العديدة. وكان عليّ أن أجتاز قاعة الامتحان الكبيرة من آخرها إلى أولها، حيث يجلس الناظر المسؤول حاملاً حقيبتي الكبيرة. وكان زملائي الطلّاب الآخرون قد أخذوا أماكنهم في القاعة وبدأوا يكتبون إجاباتهم على الأسئلة المطروحة في السابقة. وكانت القاعة تغصّ بنحو مئة طالبٍ ممتحنٍ، إضافة إلى نحو عشرة نظّار هم من أساتذة قسم اللغة العربية في الكلية. دخلتُ قاعة الامتحان كمن يدخل صالة المسافرين في مطار، وباشرتُ التوجّه إلى حيث المسؤول. فأثار دخولي بهذا الشكل الغريب انتباه كلّ الطلّاب فبدأوا ينظرون إليّ بحيرة: ماذا تراه يحمل في

هذه الحقيبة الكبيرة؟! وأخذت الابتسامة تملو وجوه بعضهم، وتتحول شيئاً فشيئاً إلى ضحك مكبوت، لا سيما وأن الضحك ممنوع أساساً في امتحان رسمي كهذا.

وصلتُ إلى حيث المسؤول، فلم يُحسن حتى أن يسألني عن سبب تأخري، إذ كان على وشك أن يضحك. فأومى إليّ بيديه أن ماذا في هذه الحقيبة الكبرى؟ فأجبتُه أنني أحملُ فيها موسوعة لسان العرب، لا سيما وأن الوثائق مسموحة في هذا الامتحان. عندها، وما أن عرف الجميع ماذا في الحقيبة الغريبة حتى انفجرت كل القاعة: أساتذةً وطلاباً بالضحك، وحتى الشيخ الوقور المعروف بجديته وصرانته ضحك مع الضاحكين. أمّا أنا فكي أتخلص من حرجة موقفي ضحكتُ مع سائر الضاحكين. ثمّ توجّهت إلى المقعد والطاولة التي أشار إليها المسؤول، وشرعتُ بالإجابة عن الأسئلة. وهكذا فالجوّ المكهرب الناتج عن صعوبة المادة وامتحانها بدّد الضحك الذي نشر في القاعة جوّاً من الانسراح.

ولم يذهب جهدي المضني في حمل هذه الموسوعة سدى، فقد وجدتُ فيها جواباً عن سؤالٍ طُرِح في هذه المسابقة وعجز معظم زملائي عن الإجابة عنه. وإلى ذلك خصّني الناظر العام بوقتٍ إضافي للتعويض عن تأخري في الوصول.

وبعد انتهاء المسابقة والخروج من القاعة، جاءني الزملاء يشكرونني على كسر الجوّ المشتج الناتج عن صعوبة المسابقة، ويهنّئونني لأنّني نجحتُ في أن أجعل الشيخ الجليل يضحك، وهو ما لم يسبق أن فعله طيلة السنة، ومعلوم أن الضحك في حضرة أصحاب اللحي أمرٌ غير مستحبّ بتاتاً. (فريجة، م. س، ص ٢٨). وكان زملائي الطلاب يأملون بالتالي أن يساهم ترطيب الأجواء الناتج عن الضحك في جعل الأستاذ الشيخ أكثر ليونة عند التصحيح. وكانوا يسألونني كيف اخترت أن تتكبّد مشقّة حمل هذه الموسوعة الضخمة من مكان سكنك البعيد في جبيل؟ في حين أننا نحن الذين نقيم على مقربة من الكلية لم نفكّر حتى بأن نأتي بها؟!.

والخلاصة فجوّ الضحك هذا كسر حاجز الخوف، وشرح الصدور، وفتح الأذهان، وجاءت نتيجة الامتحان في هذه المادة على خلاف المتوقع، فنسبة النجاح فيها فاقت السنوات الماضية، وكنّت من المبرزين، لا سيما وأنني استخدمتُ مصدراً استثنى الآخرون أن يحملوه معهم إلى قاعة الامتحان..

الضحك في حضرة حكيم صامت

وتجربة أخرى لي في هذا المجال. وتعود إلى شباط ٢٠٠١. وفي تلك الفترة عشتُ في الهند في صومعة Ashram (أو دير) شاندرام سوامي الحكيم والمعلّم اليوغي الصامت Muni Master. وببركته لزمّت الصمت لفترة قاربت الشهر، كنت فيها، وعلى طريقيته، أكتفي بأن

أعبر كتابة عما أريد أن أقول دون أن أنبس ببنت شفة. وفي اللقاءات التي كانت تجمع جمهور الدير كل مساء غالباً ما كنت أصاب بنوبات من الضحك العفوي. فكانت أقل إشارة أو حركة منه أو بسمة تجعلني أستغرق في ضحك طويل. وفي البداية شعرتُ بحرج كبير لأنني أضحك في حضرة معلّم متحقّق وشيخ حكيم وقور. لا سيما وأننا تربينا على قاعدة سلوك صارمة ظالمة تمنع من الضحك بحضور كبار السنّ والشخصيات الوقورة، وتقول: «الضحك من غير سبب من قلة الأدب». أمّا هو فكانت ردّة فعله الأولى وال عفويّة مفاجئة لي. إذ كتب للحاضرين قائلاً: أنظروا كيف يستغرق في الضحك، وكيف يتفاعل كل جسمه مع الضحك ويعبر عنه. كان ببساطة يدعوهم كي يضحكوا كما أضحك. ومرّة كتب لي مشجعاً: «في الصمت Mouna الكلام ممنوع، بيد أن الضحك مستحبّ».

ولا أزال إلى اليوم كلّمًا ذكرتُ أو تخيلتُ نوبات الضحك هذه في حضرة شاندرنا سوامي أشعر بفرح داخلي، وترتسم البسمة أو حتى الضحكة على وجهي.

يوغا الضحك والأبحاث بشأنها

ماذا الآن عن يوغا الضحك التي عرفت انتشاراً ملحوظاً في الآونة الأخيرة، ولا سيما في زمن جائحة كورونا والحجر الصحيّ.

أثبتت يوغا الضحك قدرتها على تحسين المزاج ما يدفع الشخص إلى الضحك أكثر من المعتاد خلال يومه، وهذا ما يساهم بدوره في زيادة الترابط الاجتماعي، فالضحك طاقة إيجابية تساعد الناس على التواصل مع الآخرين بسرعة، ويساهم في تحسين العلاقات الأسرية وبناء المزيد من الصداقات، ما يزيد من شعور الشخص بالأمن ورضاه الداخلي عن نفسه.

كانت يوغا الضحك مثار اهتمام العديد من الباحثين في المجالين الطّبيّ والسيكولوجي. وفي بحثٍ أخيرٍ عُمد إلى دراسة مجموعة من مرضى القولون العصبي، باعتبار أن أعراض القولون العصبي مرتبطة بالقلق والضغط النفسي. وكان الهدف من الدراسة توفير خطة علاجية تعتمد في أن على يوغا الضحك والأدوية المضادّة للقلق، إلى جانب تحديد فاعلية هذه العلاجات في مداواة القلق وأعراض القولون العصبي، وخلصت الدراسة إلى أن ليوغا الضحك القدرة على تخفيف أعراض الجهاز الهضمي المصاحبة للقولون العصبي بصورة قد تفوق الأدوية المضادّة للقلق.

وتدعم يوغا الضحك مناعة الجسم على المدى الطويل، إذ يقلّل الضحك من إفراز هرمونات التوتر ويزيد من الخلايا المناعية والأجسام التي تكافح العدوى، وبالتالي تتحسن مقاومة الجسم للأمراض، وقد أشارت دراسة بحثية إلى وجود تحسن ملحوظ في مناعة مرضى السرطان الخاضعين للعلاج الكيميائي بعد إدخال العلاج بالضحك ضمن خطتهم العلاجية

كيف نمارس يوغا الضحك؟

غالباً ما تتم ممارسة يوغا الضحك في بيئة جماعية، مثل نادٍ أو ورشة عمل، وذلك تحت إشراف مدرب يقوم بتدريب الحاضرين على تقنيات مختلفة لافترال الضحك وتعزيز البهجة، حيث تشمل معظم الجلسات تقنيات تنفس بسيطة مع التصفيق والتهاف لمساعدة المشاركين على الاسترخاء والضحك.

وتوفّر منظمة «يوغا الضحك» Laughter yoga دليلاً مفصلاً لممارسة يوغا الضحك يضمّ ٤ خطوات أساسية، تبدأ عادةً بالتصفيق وتمارين الإحماء، يتبعها إدخال إيقاع للتصفيق لزيادة مستويات الطاقة، غالباً بإيقاع ١-٢ و ١-٢-٣ مع ترديد هو-هو، ها-ها-ها، التي تأتي هنا بمثابة تقنية لتحفيز التنفس العميق من البطن.

في الخطوة الثانية يتمّ التركيز على تمارين التنفس، وفيها يتمّ الشهيق عن طريق الأنف بأخذ نفس عميق قدر الإمكان مع رفع اليدين للأعلى وشدّ الجسم للخلف قليلاً مع حبس النفس لمدة ٤-٥ ثوانٍ، يليها الزفير من خلال الفم مع الانحناء إلى الأمام إذ يفيد هذا في دفع الحجاب الحاجز إلى الأعلى وإفراغ الرئتين تماماً، ويُصح بالانتظار قليلاً قبل تكرار عملية التنفس من جديد.

تهدف الخطوة التالية إلى إخراج الطفل الذي بداخلنا بهدف الضحك دون سبب، ويتمّ الوصول إلى ذلك عن طريق ترديد عبارات إيجابية ما بين تمارين التنفس بصوت جماعي مثل «جيد جداً» أو «رائع» مع التصفيق. يساعد هذا في الحفاظ على مستويات الطاقة وزيادة الحماس لدى الجميع.

وأخيراً نصل إلى تمارين الضحك التي تهدف إلى كسر حاجز الخجل، والبدء بمحاكاة الضحك لحين تحوّلته إلى ضحك حقيقي.

على الرغم من أنّ الأمر قد يبدو بسيطاً بل وساذجاً في البداية، فإنّ الغاية من هذه التمارين إزالة أيّ حكم داخلي والتمتع في النهاية بضحك حقيقي ينعكس بصورة إيجابية على الصحة العامة، فيوغا الضحك لا تحمل في طياتها أيّ سلبيات، ولا تنحصر ممارستها في فئة من الناس أو في عمر معيّن. ولا بدّ في الختام من التنبيه إلى أنّها ليست بديلاً للأدوية والعلاجات التقليدية وإنّما قد تلعب دوراً مسانداً لا يستهان به.

والخلاصة الأخيرة والبسيطة والمبسّطة، ففي الضحك حلٌّ لكثيرٍ ممّا نعاني من مشاكل نفسية وعصبية وصحية، وقد أدرك أسلافنا العرب واللباننيون بفطرتهم السليمة هذه الحقيقة التي باتت اليوم مثبتة علمياً. فلم لا يكون هؤلاء الآباء والأجداد أسوةً لنا ونموذجاً يحتذى عند البحث الدؤوب عن الحلول؟!

36. Gallese V, Fadiga L, Fogassi L, Rizzolatti G (1996) Action recognition in the premotor cortex. *Brain J Neurol* 119 (Pt 609–593:(2 . <https://doi.org/10.1093/brain/119.2.593>

37. Ramachandran VS, Oberman LM (2006) Broken mirrors: a theory of autism. *Sci Am* 69–295:62 . <https://doi.org/10.1038/scientificamerican62-1106>

38. Dapretto M, Davies MS, Pfeifer JH, Scott AA, Sigman M, Bookheimer SY, Iacoboni M (2006) Understanding emotions in others: mirror neuron dysfunction in children with autism spectrum disorders. *Nat Neurosci* 30–9:28 . <https://doi.org/10.1038/nn1611>

39. Gallese V (2001) The “shared manifold” hypothesis. From mirror neurons to empathy. *J Conscious Stud* 50–8:33

40. Preston SD, de Waal FBM (2002) Empathy: Its ultimate and proximate bases. *Behav Brain Sci* 20–25:1; discussion 71-20 . <https://doi.org/10.1017/s0140525x02000018>

41. Masson S Pour que s’activent les neurones. 2

42. Bryck RL, Fisher PA (2012) Training the brain: Practical applications of neural plasticity from the intersection of cognitive neuroscience, developmental psychology, and prevention science. *Am Psychol* 100–67:87 . <https://doi.org/10.1037/a0024657>

43. Jones N, Saville N, Salamoura A (2016) Learning Oriented Assessment. Cambridge University Press

23. Kant I (1996) *The Metaphysics of Morals*. Cambridge University Press
24. Decety J, Ickes W (2009) *The Social Neuroscience of Empathy*. MIT Press, Cambridge, MA, USA
25. Ryan RM, Deci EL (2000) Self-determination theory and the facilitation of intrinsic motivation, social development, and well-being. - *PsycNET. Am Psychol* 78–55:68 . <https://doi.org/066-0003/10.1037X.55.1.68>
26. Farmer TW, Lines MM, Hamm JV (2011) Revealing the invisible hand: The role of teachers in children’s peer experiences. *J Appl Dev Psychol* 256–32:247 . <https://doi.org/10.1016/j.appdev.2011.04.006>
27. A quote by Plato. <https://www.goodreads.com/quotes/-61236never-discourage-anyone-who-continually-makes-progress-no-matter-how-slow>. Accessed 22 Jan 2022
28. Legault L (2017) The Need for Competence. In: Zeigler-Hill V, Shackelford TK (eds) *Encyclopedia of Personality and Individual Differences*. Springer International Publishing, Cham, pp 3–1
29. Di Domenico SI, Ryan RM (2017) The Emerging Neuroscience of Intrinsic Motivation: A New Frontier in Self-Determination Research. *Front Hum Neurosci* 11:
30. Varga M *The Effect of Teacher-Student Relationships*. 42
31. Greenglass ER, Burke RJ, Konarski R (1997) The impact of social support on the development of burnout in teachers: Examination of a model. *Work Stress* 278–11:267 . <https://doi.org/02678379708256840/10.1080>
32. Mateos-Aparicio P, Rodríguez-Moreno A (2019) The Impact of Studying Brain Plasticity. *Front Cell Neurosci* 13:66 . <https://doi.org/10.3389/fncel.2019.00066>
33. Green CS, Bavelier D (2008) Exercising Your Brain: A Review of Human Brain Plasticity and Training-Induced Learning. *Psychol Aging* 701–23:692 . <https://doi.org/10.1037/a0014345>
34. Giacomo R, Fogassi L, Vittorio G (1999) Les neurones miroirs. In: *Pourlascience.fr*. <https://www.pourlascience.fr/sr/article-fond/les-neurones-miroirs1419-.php>. Accessed 6 Nov 2020
35. Rizzolatti G, Sinigaglia C (2008) *Neurones miroirs (Les)*. Odile Jacob

Pearson CAB, Houben RMGJ, Nightingale ES, Endo A, Tully DC, Liu Y, Villabona-Arenas J, O'Reilly K, Funk S, Eggo RM, Jit M, Rees EM, Hellewell J, Clifford S, Jarvis CI, Abbott S, Auzenbergs M, Davies NG, Simons D (2020) Effectiveness of isolation, testing, contact tracing, and physical distancing on reducing transmission of SARS-CoV2- in different settings: a mathematical modelling study. *Lancet Infect Dis* 1160–20:1151 . [https://doi.org/10.1016/S1473-3099\(20\)3099-1473](https://doi.org/10.1016/S1473-3099(20)3099-1473)

12. Arpin L, Capra L (2008) *Accompagner l'enseignant dans son parcours professionnel: une pratique d'accompagnement pédagogique cotnrée sur la personne de l'enseignant en développement de compétences professionnelles*. Chenelière Education, Montréal

13. Donnay J, Charlier E (2008) *Apprendre par l'analyse de pratiques: initiation au compagnonnage réflexif*. Presses Universitaires de Namur, Namur, Belgique

14. Vial M (2007) *L'accompagnement professionnel : une pratique spécifique*

15. Phillips HR, Bostian P (2015) *The purposeful argument: a practical guide*

16. Kahnemen D, Jack K, Richard T (1991) Anomalies: The Endowment Effect, Loss Aversion, and Status Quo Bias. *J Econ Perspect* 206–5:193

17. Beauvais M (2004) Des principes éthiques pour une philosophie de l'accompagnement. *Savoirs* n° 113–6:99

18. Cierpka M, Thomas V, Sprenkle D (2005) *Family Assessment: Integrating Multiple Clinical Perspectives*. Hogrefe Publishing

19. McClelland JL (2001) Cognitive Neuroscience. In: *International Encyclopedia of the Social & Behavioral Sciences*. Elsevier, pp 2140–2133

20. Cognitive Neuroscience. In: MIT McGovern Inst. <https://mcgovern.mit.edu/research-areas/cognitive-neuroscience/>. Accessed 8 Oct 2021

21. Winter DE, O'Raw MP *Literature Review of the Principles and Practices relating to Inclusive Education for Children with Special Educational Needs*. 100

22. Perrenoud P (2012) *Le travail sur l'habitus dans la formation des enseignants. Analyse des pratiques et prise de conscience*. De Boeck Supérieur

are antecedent issues to deal with and to improvise solutions [43].

References

1. Direction des ressources éducatives (2013) Cadre de référence sur l'accompagnement du développement professionnel
2. Neero S (2016) Guidance and counselling in education. Directorate of Distance Education, Tripura University
3. Wilcox G, Morett LM, Hawes Z, Dommett EJ (2021) Why Educational Neuroscience Needs Educational and School Psychology to Effectively Translate Neuroscience to Educational Practice. *Front Psychol* 11:3977 . <https://doi.org/10.3389/fpsyg.2020.618449>
4. Carew TJ, Magsamen SH (2010) Neuroscience and Education: An Ideal Partnership for Producing Evidence-Based Solutions to Guide 21st Century Learning. *Neuron* 688–67:685 . <https://doi.org/10.1016/j.neuron.2010.08.028>
5. Goswami U (2006) Neuroscience and education: from research to practice? *Nat Rev Neurosci* 413–7:406 . <https://doi.org/10.1038/nrn1907>
6. Buffalo EA, Movshon JA, Wurtz RH (2019) From basic brain research to treating human brain disorders. *Proc Natl Acad Sci* –116:26167 26172 . <https://doi.org/10.1073/pnas.1919895116>
7. Académie des sciences (2004) Le cerveau. *Lett. L'Académie Sci.* 12
8. Adelman H, Taylor L (2012) Mental Health in Schools: Engaging Learners, Preventing Problems, and Improving Schools. *Contemp Sch Psychol* 166–16:163
9. Elliott K, Julison J, Katz N, Parris J In Support of Educators: Strategies That Work. 18
10. IUPAC (2019) Compendium of Chemical Terminology, 2nd ed. Compiled by A. D. McNaught and A. Wilkinson. Blackwell Scientific Publications, Oxford (1997)
11. Kucharski AJ, Klepac P, Conlan AJK, Kissler SM, Tang ML, Fry H, Gog JR, Edmunds WJ, Emery JC, Medley G, Munday JD, Russell TW, Leclerc QJ, Diamond C, Procter SR, Gimma A, Sun FY, Gibbs HP, Rosello A, Zandvoort K van, Hué S, Meakin SR, Deol AK, Knight G, Jombart T, Foss AM, Bosse NI, Atkins KE, Quilty BJ, Lowe R, Prem K, Flasche S,

of his emotional and intellectual brain. With the spread of Corona and the absence of spatial communication, both verbal and non-verbal digital interactions increasingly are occurring.

Emotional intelligence describes the ability of people to understand and deal with the emotions and feelings of others. It often explains the success of an individual, the high IQ is not enough to face the trials of life.

Monitoring and impact

For the fourth stage “monitoring and impact”, the metaphor often used ”brain is like a forest” [41] helps teachers a lot in their learning and with their students. In a dense forest, the repeated passage of the walker gradually creates a path that is increasingly easy to follow. When the brain is called upon repeatedly to complete a task (training), it develops neural “paths” so that it can do the task easier and faster. If the brain is used only rarely for any task (lack of training), the neuronal connections associated with this learning gradually weaken until they disappear. So the brain has a remarkable ability for adapting to environmental changes [42].

At last collaboration between brain sciences and learning, sciences are not unanimous among all educational players. A lot of limitations can manifest as the educational relationships are unique and complex with each teacher. In addition, neuroscience does not replace the pedagogical knowledge, necessary for the optimization of teaching and learning. Regarding educational advisers, it is up to them to benefit from neuroscience and to follow all discoveries not only in neuroscience but in all areas related to pedagogy and learning.

Conclusion

We have tried herein to present how neuroscience can give to help educational coaching. In the four stages of support, neuroscience can provide a great contribution. And finally, we can say good educational supporters are like learners and teachers, they are not produced simply by following some set of effective procedures, most of the time there

Restitution stage

During the third stage of “restitution”, besides all aforementioned progress in neurosciences, other contributions can help ESs to better performance during the accompaniment. The supporter must ensure that the accompanied should be present physically, but also intellectually and emotionally to be able to perceive all information. Most often, teachers are motivated to increase their skills during this stage, and the rapid development of neuroscience research opens up new advances that can help them view teaching and learning methods from a new perspective. The restitution must be done in light of the three crucial contributions of neuroscience. The first one is the “brain plasticity” (neural plasticity, neuroplasticity), which describes the brain’s ability to reshape its connections throughout life in response to the environment and the experiences of the individual stimuli [33 ,32]. It is the brain’s permanent ability to rebuild itself into neural circuits. In addition, plasticity is affected by the environment (the effect of epigenetic factors) hence the importance of the choices made, to take care of one’s mind and body as well as the importance of person-environment interactions. Studies into neuroplasticity contribute to the prosperity of our social orders as this feature is associated with learning and memory, mental health and homeostasis, sensorial preparation, and recuperation from mind injuries [32].

The second contribution is the distinctive class of neurons the “mirror neurons”. The “mirror neural systems” was identified in the 1990s by Rizzolatti [36–34]. For instance, it has been proposed and demonstrated by neuroscientists that the failure of medically autistic children to communicate with individuals and life circumstances relies upon a malfunction of the mirror neuron system [38 ,37]. Furthermore, several works concluded that the mirror neuron system is involved also in emotions and empathy [40 ,39]. Coming back to our educational framework, the activity of these neurons is observed when the subject, in our case the teacher, performs a physical act towards a goal and when he observes, or hears others perform the same act. Professional training begins with imitating the coach, it influences the development

empathy is the first one marked by sharing the emotions and feelings of others. Cognitive empathy is the second, knowing by understanding the intentions of others (independent of emotional neural networks). And the last is the cognitive-emotional empathy resulting from a mix of emotional and cognitive aspects of empathy. It combines a comprehension of the other's perspective and what things mean to the other with knowledge of the emotional importance of events.

On the other hand, we must seek self-empathy. The latter is empathy for oneself by accepting one's emotions.

In addition, the counselor should avoid competition and comparison which blocks the secretion of oxytocin, particularly during interdisciplinary projects the teacher should come into contact with his colleagues.

Individuals can either be proactive and involved or passive and detached, depending on the social conditions in which they develop and function [25]. Previous research has shown that teachers' emotional support is very important for students' social functions and academic participation [26]. But what about the teachers themselves? Recently, studies have shown that socio-emotional behaviors have positive impacts on the personal and professional lives of teachers. It starts from the sense of belonging and motivation at work based on the wisdom attributed to Plato "Never discourage anyone who continually makes progress, no matter how slow" [27]. It passes also by the high sense of competence leading to enhance the intrinsic motivation. Competence is the psychological need to exert a meaningful effect on one's environment [28]. Intrinsic motivations refers to the spontaneous tendency "to seek out novelty and challenges, to extend and exercise one's capacity, to explore, and to learn" [29]. Moreover, classroom behavior can be improved through an enhancement in the relationships between teachers and students [30]. Furthermore, the works of Greenglass et al. concluded that greater co-worker support contributed to the prediction of burnout, particularly to decreased depersonalization and increased feelings of accomplishment [31].

“a problem well stated is a problem half solved” [18]. Thus, the starting point to solve any complicated situation is a decisive step in every journey to find solutions. During this second stage, a good environment must be ensured, reassuring the teacher in a healthy and calm situation is also needed. Throughout this stage, cognitive neuroscience predominates. The latter is a field of neuroscience, two-dimensional, which studies the functioning of the brain, the biology of thought, mental life, emotions, and behaviors [19]. Better understand the brain to teach better, a fundamental understanding of the brain through which everything is evaluated. In other words, cognitive neuroscience seeks to use observations from studying the brain to unravel the mechanisms of the mind [19]. Brain processes come together to affect our thinking and understanding of the world of music and how the brain develops and learns [20]. Thus, the supporter person should benefit from the intellectual dimension of the cognitive neuroscience studying the cerebral mechanisms of cognition (how the brain enables the mind), and from the affective and social dimension studying the cerebral mechanisms of emotions, feelings, relational capacities, and their impact on the person.

This stage should pave the way for the following third stage. It gives counselors as well as teachers who use particular models, an understanding of how they work or an opportunity to stop using unnecessary methods. Supporters should fit to the learner’s situation and institutional constraints [21, 17], they should as well free themselves from the teaching posture “teacher habitus” [22]. According to Kant, the “other” is considered as an end in itself, never merely as a means, it is precisely in this that its dignity consists [23]. Thus, learners have the right to make mistakes, considered as a stakeholder in the process.

Neuroscience research shows us that not only action but also emotions, bodily sensations up to body states can be shared between humans. Empathy is “based on our ability to recognize that others are similar to us, but without confusion between ourselves and the other” [24].

Decety [24] distinguishes three forms of empathy. Emotional

The different stages of support

The support can be divided into four stages, it begins with first contact, then the diagnosis stage (analyze the situation and plan the action), followed by the restitution (acting), and finally the fourth stage monitoring and impact (regulating).

Making contact

Making contact is the first stage in the process of support operation. Teachers not only interact with their students at school but also interact to a large extent with their peers. Therefore, school is not only a place where teachers only do education, this is also one of the most important environments for them to acquire social skills, interact with colleagues, discuss with them and even learn from their experiences. Making contact is a decisive phase in which the advisor should establish a climate of trust, adopt an attitude of understanding: no judgment, be open, avoid preconceptions, give the necessary time and guarantee the confidentiality of comments and data. Although “good” stress makes efficient and improves cognition and learning, beyond a certain level, it causes the opposite effect. Thus following the first meeting or under the impact of humiliations, the teacher may become stressed. Consequently, in a state of stress, there is the secretion of cortisol and adrenaline at too high levels. Cortisol has a toxic effect, it destroys neurons in the prefrontal cortex and the hippocampus. In addition, the adrenaline secreted at a normal rate gives the energy to life. However, in a state where the amount of adrenaline becomes very high, it causes anger and anguish.

While the benevolent attitude develops cognitive faculties (memory and learning) by densifying the connections of the hippocampus (learning and memory). As it regulates emotions, strengthens the reaction to stress by secreting oxytocin. The latter is the hormone of love and trust and triggers the secretion of dopamine and serotonin.

Diagnostic stage

The American inventor Charles Kettering (1958-1876) stated

by abandoning the circumstances of the actors. This appropriate angle during the accompaniment is the result of a shiny methodology and a distinctive approach.

In addition to the above, a new challenge has arisen since 2019 and the emergence of the Corona pandemic. The general situation of countries during COVID11] 19-) makes distance education imperative. This approach inevitably leads to remote learning and a fortiori remote support, to control the spread of the disease.

According to Arpin and Capra (12] (2008], “To support teachers today, it is important to know their culture, to take into account their abilities and the reality of their daily work, particularly when the challenges of their professional practice are numerous”. Donnay and Charlier (13] (2008] establish that “to accompany is to enter into a relationship”. While according to Vial [14] “Support is a meeting”.

Considering the various definitions, the accompaniment is based on a personal exchange and which cannot take place without being on the same wavelength and that means these two people get along well. This certainly won't be the case unless the virtual divide between supporter and teacher is bridged. Therefore, one must break the ice on both sides by letting go of the perception of superiority and excessive knowledge of the advisor and turning off the insecurity alarm signal by the teacher.

Two main obstacles in the guidance process, the first one is what is known as false equivalence. And this last term is a fallacy in which one treats things, based on flawed or false reasoning, as the same when they aren't the same [15]. The second obstacle is known in psychology as the endowment effect. In the economy, this bias occurs when we overestimate something we own, regardless of its target market value [16]. Beauvais M. [17] believes that support is based on three ethical principles which are as follows: the principle of responsibility, restraint, and doubt. So accompanying person must cause doubt in the accompanied person, in order to drop his confidence and the endowment effect within, which is necessary for any decision that will have a long-term effect.

relationships, and sleep impact educational outcomes [5 ,4]. Based on intensive research, researchers are trying to explain how the human brain works. To repair our machines it is essential to know how they work [6]. Wherefore significant progress has been made in the cellular and molecular field of neuroscience, and modern techniques (such as electroencephalography and MRI and in particular fMRI) have revolutionized the non-invasive observation of brain activity even in humans [7]. So the educational and training practice, in its various fields, can no longer ignore the research and achievements of neuroscience today. Child- and family-centered counseling practices that also take into account the emotional support and career guidance needs of educational staff appear to be more effective in responding to children's problems [8]. Over the past two years, a new challenge has been added to the work of ES, that of distance communication. After a brief preface about effective support, this manuscript sought to show what and how it is possible to support educators in the light of educational neuroscience. In other words, we aim to answer the following question "What can neuroscience bring to the world of an ES?".

Effective support

It's well known that "one-size-fits-all" approaches to professional development end up fitting no one [9]. Therefore, according to the unique environment and the needs of the students, our support for educators looks very different. In chemistry, chemists talk about collision theory [10], where only efficient collisions lead to product formation. Thus, the collisions of the reagents will not necessarily lead to products. By analogy, we can talk about effective support. The educational supporter should aim at the appropriate angle to achieve the desired goal.

On the one hand, it is not guaranteed that every meeting with a teacher leads to the desired goal. On the other hand, an approach that is deemed effective with one teacher will not necessarily be effective with another. Thus, the results cannot be fully transposed to all cases

Abstract

Educational support is crucial for improving the quality of the teaching workforce. They can have a substantial impact on the quality of teaching and learning in schools. In the same way as an educator every day makes a difference in the life of a student, supporters of teachers can make a huge difference in the teacher's careers. This paper tries to harmonize educational neuroscience with educational support, benefiting from the latest research related to educational neuroscience. Furthermore, we intended in these few pages to inspire and inform stakeholders in this endeavor. The effective support passes through four stages namely making contact stage, the diagnostic stage, the restitution stage, and finally the monitoring and impact stage. We have tried to treat each stage using one of the characteristics of neuroscience and set the outputs, as well as the expected impacts on the relationship between the mentor and the teacher and the performance of the teacher. Finally, recognizing that every education system is unique, we do not make recipes about specific steps, but review the new insights into educational neuroscience, allowing for supporters to fit it in each supporter-educator relation.

Keywords: Neuroeducation, Support, Empathy, Neuroscience.

Introduction

Educational support (ES), via guidance and counseling, has a decisive impact on teaching practices [1]. Whereas guidance is a process that involves listening to the problems that an individual faces to give ready-made solutions, counselor empowers individuals to create the most appropriate solutions to tackle an issue [2]. Herein we will talk about ES as it includes the two processes. Continuously in the educational fields, ES for teachers goes through substantial challenges, so being an educational advisor requires being a surgeon who uses his scalpel with infinite care. In recent decades, educational neuroscience has developed as a field of research and practice [3]. Thus, neuroscience has influenced educational practice in many ways. For instance, it has driven insights into how anxiety, attention,



Educational support in the light of educational neurosciences

Ali JABER^{1,2}

Mayssa HAJJ SLEIMAN ^{1,3}
